الفصل العاشر

١٠

الهزيمة؟

١٩٧٩ـ١٩٩٩

كان «إعادة الغزو» الأصولي

برهاناً على بطلان القول بأن الدين قوة قد نفدت.

فلم يعد المرء بمستطيع أن يتساءل، كما فعل أحد

المسئولين المنفعلين في حكومة الولايات المتحدة عقب

اندلاع الثورة الإيرانية «من منا يأخذ الدين مأخذ

الجد؟». لقد أخرج الأصوليون العقيدة من دائرة الظل

وبرهنوا على أنها تلقى استجابة من قطاع كبير في

المجتمع الحديث. وتسببت انتصاراتهم في استياء

العلمانيين إذ لم يكن هذا هو الدين الذى تم ترويضه

وتهذيبه وخصخصته في عصر التنوير. وبدا الأمر

تنكراً لقيم الحداثة المقدسة. وقد أوضحت الهجمة

الدينية في أواخر السبعينيات أن المجتمعات

مستقطبة. وبحلول نهاية القرن العشرين اتضح أن

الهوة قد اتسعت بين المتدينين والعلمانيين. فلم يعد

باستطاعتهم التحدث بنفس اللغة،

أو مشاركة نفس الرؤى.

ومن المنظور العقلاني، كانت الأصولية كارثة. لكن لم يكن هذا ليثير الدهشة إذ إنه كان في مجمله تمرداً على ما رأى الأصوليون أنه الهيمنة غير الشرعية للعقلانية العلمانية. فكيف لنا أن نقيّم الأصوليات كحركات دينية؟ وماذا باستطاعتها إخبارنا إياه عن التحديات الخاصة التي يواجهها الدين في عالم ما بعد الحداثة الراهن؟ وهل كانت انتصارات الأصوليين في مجملها هزيمة للدين؟ وهل ذوى الخطر الأصولي؟

كانت الثورة الإيرانية، على وجه الخصوص، مصدر قلق لهؤلاء الذين مازالوا متمسكين بمبادئ التنوير. وكان المفترض، أن الثورات أمر علماني على وجه التحديد حيث إنها كانت تحدث في فترات يحظى فيها المجال الدنيوى برقي وتميز ويوشك فيها أن يعلن استقلاله عن المجال الأسطورى للدين. وكما بينت هانا آرندت في كتابها الشهير «عن الثورة» (١٩٦٣) فقالت «وقد يتبين لنا في نهاية الأمر أن ما ندعوه ثورة هو مرحلة انتقالية تأتي بميلاد لمملكة علمانية جديدة».

وهكذا، بدت الانتفاضة التي تأتي بدولة دينية أمراً من الفانتازيا الخالصة، مربكة في رفضها الواضح الساذجة للحكمة الغربية المتعارف عليها. ولم يتوقع أحد في أعقاب (كارثة) الثورة الإيرانية أن يستمر نظام الخميني. فقد بدت فكرة الثورة الدينية نفسها، وكذلك الحكومة الإسلامية الحديثة، مفارقات لغوية.

بيد أن الغربيين وجدوا أن عليهم أن يواجهوا حقيقة أن أغلبية الشعب الإيراني تريد حكماً إسلامياً. ولم ينهض المعتدلون، كما تنبأ مراقبون كثيرون، ويحتلوا الساحة للقضاء على «الملالي المجانين». ووجد القوميون الذين أرادوا جمهورية علمانية وديموقراطية أنفسهم أقلية في إيران ما بعد الثورة. إلا أنه لم يكن ثمة اتفاق على شكل الحكومة الإسلامية. فقد أراد ذوو التعليم الغربي من أتباع شريعتي نظاماً يتولى مقاليد الحكم فيه أناس من خارج المؤسسة الدينية، ومنح رجال الدين سلطة أقل. وأراد مهدي بازارجان، رئيس وزراء الخميني الجديد، العودة إلى دستور ١٩٠٦ (بدون النظام الملكي) مع مجلس من المجتهدين له حق نقض

التشريعات البرلمانية غير الدينية. هذا، على حين ضغطت مدارس قم من أجل ولاية الفقيه للخميني. إلا أن آية الله شريعات ماداري وآية الله طلقاني عارضا بشدة هذه الرؤية لحاكم للأمة من رجال الدين ذي إلهام روحاني إذ إنهما انتهاك لقرون من الموروث الشيعي ورأيا أخطاراً جمة في مثل هذا الشكل من الحكم. ثم أعقب هذا، في أكتوبر ١٩٧٩ صراع خطير. فقد هاجم بازارجان وشريعات ماداري مشروع الدستور الذي وضعه أتباع الخميني لمنح السلطة العظمى للفقيه (الخميني) الذي يتحكم بمقتضاها في القوات المسلحة، وبحق إعفاء رئيس الوزراء من مهامه دون إبداء أسباب. واتخذ المشروع أيضاً الترتيبات لانتخاب رئيس للجمهورية ومجلس نيابي، ولتكوين مجلس للوزراء ومجلس للأمناء من اثني عشر رجلاً له سلطة نقض القوانين التي تتعارض مع الشريعة.

وكانت المعارضة لمشروع الدستور قوية إذ عارضته بشدة جماعات الفدائيين اليسارية والأقليات الإثنية في إيران والحزب الشيعي الإسلامي المؤثر (الذي كونه آيه الله شريعات ماداري). كما سيطر التوترعلى الليبراليين والطبقات الوسطى ذات التعليم الغربي لما رأوا أنه تطرف ديني للنظام، وبدا لهم أنهم قد قاتلوا بشجاعة ليحرروا أنفسهم من طغيان الشاه السابق ليجدوا أنفسهم خاضعين لطغيان ديني. كما تبينوا أن مشروع الدستور ضمن حرية الصحافة والتعبير السياسي (التي حارب الليبراليون من أجلها بهلوي) بشرط عدم معارضة الشريعة والممارسات الإسلامية. وكان رئيس الوزراء بازارجان صريحاً بوجه خاص وحرص على ألا يهاجم شخص الخميني أبداً، لكنه انتقد بشدة ما أسماه المؤسسة الدينية الرجعية في الحزب الثوري الإسلامي المسئولة عن البنود المقترحة في الدستور التي ستؤدي إلى انتهاك كل أهداف الثورة الإسلامية.

وواجه الخميني مأزقاً، فقد كان من المقرر أن يقترع الناس على مشروع الدستور يوم ٣ ديسمبر عام ١٩٧٩ فى استفتاء قومي، وبدا أنه من المحتمل أن يهزم مشروع ولاية الفقيه. وكان الخميني قد ظل براجماتياً حتى هذا المنعطف، حيث تمكن ببراعة من التحكم فى تآلف اليساريين والليبراليين للإطاحة بنظام الشاه، إلا أنه اتضح فى نهاية عام ١٩٧٩ أن هذا التحالف المرتبك لمجموعات ذات أهداف

متعارضة كان على وشك التهاوى، وأن مستقبل الثورة، كما رآها هو، أصبح فى خطر. وهنا أتت الولايات المتحدة إلى مساعدته دون قصد منها.

فرغم إدانته أمريكا كشيطان أعظم، فقد ظلت العلاقات بين حكومة الولايات المتحدة والنظام الإسلامى الجديد حذرة لكنها محايدة ومنضبطة. وفى ١٤ فبراير عام ١٩٧٩، عقب عودة الخمينى إلى إيران، هاجم الطلبة السفارة الأمريكية فى طهران وحاولوا احتلالها إلا أن الخمينى وبازارجان تحركا بسرعة لتفريق المهاجمين. وظل الخمينى متشككاً فى الشيطان الأكبر، ولم يستطع أن يقتنع أن أمريكا ستتخلى عن مصالحها فى إيران دون معركة. ومن منطلق الخوف الأساسى الذى رأينا أنه يطارد معظم القادة الأصوليين، اعتقد الخمينى أن الولايات المتحدة تتحين الفرص، وأنها ستهدد الجمهورية الإسلامية الجديدة بانقلاب يماثل ذلك الذى أطاح بمصدق عام ١٩٥٣ حينما تحين الفرصة. وحينما وصل الشاه السابق إلى نيويورك فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٩ كى يتلقى معالجة طبية من السرطان الذى كان فى سبيله للقضاء عليه، بدأت شكوك الخمينى تتأكد، وكان قد سبق أن حذر الخبراء الولايات المتحدة، وحذرتها طهران من السماح بدخول الشاه السابق. إلا أن كارتر اعتقد أنه بغير استطاعته أن ينكر خدمة إنسانية على حليفه السابق.

وسرعان ما أصبح خطاب الخمينى ضد الشيطان الأكبر أشد عنفاً وضراوة. فطالب بإعادة محمد رضا بهلوى إلى إيران لمحاكمته، وطالب بتطهير الحكومة من كل من ظلوا موالين للنظام السابق. وأعلن عن وجود خونة فى إيران مازالوا يعتمدون على الغرب وأنه يجب إقصاؤهم عن الأمة. ولم يكن الأمر يستدعى عبقرية خاصة كي يكتشف الفرد أن الهدف الأساسى لتلك الهجمة كان رئيس الوزراء بازارجان ومعه كل المعارضين لمشروع الدستور. ثم أتاح بازارجان الفرصة للخمينى لتنفيذ هدفه حينما سافر فى ١ نوفمبر إلى الجزائر لحضور الاحتفالات بذكرى الاستقلال حيث التقطت له الصور وهو يصافح زريجنيو برزنسكى مستشار كارتر للأمن القومى. وسعد أعداء بازارجان فى أوساط الثورة الإيرانية بأن يدينوه كعميل لأمريكا. ووسط هذا الجو المشحون، قام ثلاثة آلاف طالب بالهجوم على السفارة الأمريكية فى طهران واحتفظوا بتسعين من الرهائن. وفى البداية،

افترض الجميع أن الخميني سيضمن الإفراج الفورى عنهم ويأمر الطلبة بالانسحاب كما سبق له أن فعل. ولا نعرف إلى يومنا هذا ما إن كان الخمينى قد علم مسبقاً بهجوم الطلبة أم لا. وعلى أية حال، فقد ظل يتجنب الأضواء لأيام ثلاثة. وحينما تحقق بازارجان أنه لن يحصل على دعم الخميني لإخلاء السفارة، تبين له عجزه السياسي، وقدم استقالته ومعه وزير الخارجية إبراهيم يازدى يوم ٦ نوفمبر. ولدهشتهم، وجد الطلبة، الذين توقعوا أن يستمر حصارهم أياماً قليلة فقط، أنهم يقفون في المقدمة كرأس حربة في مواجهة كبرى بين الخميني والولايات المتحدة. ودعم الخميني والجمهورية الإسلامية الثورية الطلبة. ومنح الذيوع الإعلامى الذى أحاط بأزمة الرهائن في جميع أنحاء العالم الخميني قوة إصرار جديدة. ورغم الإفراج عن الرهائن من النساء وجنود البحرية السود، فقد استمر احتجاز الدبلوماسيين الأمريكيين الاثنين وخمسين مدة ٤٤٤ يوماً ليصبحوا أيقونة الراديكالية الدينية الإيرانية.

وكان الرهائن هدية السماء للخميني إذا أتاحت له التركيز على الشيطان الأكبر أو عدو خارجي. وأسفر أسر الرهائن وكراهية ما بعد الثورة لأمريكا عن إيرانيين متحدين خلف الخميني في تلك الفترة من الاضطراب الداخلي. كما أن خروج بازارجان أزاح أكثر معارضي مشروع الدستور الجديد صخباً وأضعف المعارضة. وعلى هذا، تمت الموافقة على الدستور الجديد في ديسمبر بأغلبية مؤثرة في استفتاء عام. ونظر الخميني إلى مسألة الرهائن ببساطة، من منطلق وضعه الداخلي. وشرح لبني صدر، رئيس الوزراء الجديد، في بداية توليه الوزارة الموقف قائلاً:

«إن لهذا الفعل مزايا عديدة، فالأمريكيون لا يريدون أن يروا الثورة الإسلامية تتجذر. وسنبقى على الرهائن حتى ننتهي من أمورنا الداخلية، ثم نفرج عنهم. لقد وحد هذا الموقف شعبنا ولن يتجرأ أعداؤنا على الإتيان بفعل ضدنا. كما أن باستطاعتنا إجراء الاستفتاء على مشروع الدستور دون صعوبات، ثم نجرى الانتخابات الرياسية والنيابية. وبعد الانتهاء من كل هذه الشئون، يمكننا الإفراج عن الرهائن».

وكانت هذه سياسة لا تمليها روحانية إسلامية بالرغم من خطب الخميني النارية، بل كانت قطعة من الفكر المنطقى البراجماتى. وتغيرت نظرة الخمينى إلى نفسه من جراء الأزمة. فبدلاً من أن يظل سياسياً عملياً، أصبح من وجهة نظره، قائداً للأمة فى صراعها ضد الإمبريالية الأمريكية، مضفياً بذلك على لفظ الثورة فى خطابه قيمة شبه مقدسة، لها نفس أهمية التعبيرات الإسلامية التقليدية. فقد أصبح وحده الذى يستطيع مجابهة أعتى القوى الإمبريالية فى العالم والكشف عن حدود سطوتها. وفى نفس الوقت، فإن ما أطلقته الأزمة فى أنحاء العالم من كراهية لإيران جعل الخمينى يدرك، أكثر من أى وقت مضى، هشاشة الثورة، التى أصبح الأعداء يتهددونها من الداخل والخارج، فتم اكتشاف أربعة محاولات للانقلاب على النظام فيما بين الأيام الأخيرة من مايو ومنتصف يوليو عام ١٩٨٠. واستمرت المعارك فى الشوارع بين أعضاء المنظمات الفدائية العلمانية وحرس الخمينى الثورى حتى نهاية العام. وازداد التشوش والرعب فى تلك الأيام، بانتشار ما سمى «المجالس الثورية» فى جميع أنحاء إيران حتى إن الحكومة لم تتمكن من السيطرة عليها. وقام هؤلاء «القميطة» "Komitah" بتنفيذ أحكام الإعدام فى مئات الأفراد بتهم «السلوك غير الإسلامى» مثل الدعارة، أو لوجود الأشخاص فى موضع المسئولين أيام حكم أسرة بهلوى. ويبدو أن ظهور مثل تلك الجماعات بعد تهاوى القوة المركزية خاصية عالمية للثورات التى يقصد بها تغيير المجتمع. ورغم أن الخمينى أدان تلك «القميطات»، حيث أعلن أنهم ينتهكون الشريعة ويقوضون نقاء الثورة، إلا أنه لم يقم بحل هذه الجماعات، إلى أن تمكن فى النهاية من إخضاعهم له والتحكم فيهم وجعل منهم طبقة أساسية تدعم نظامه. وكان على الخمينى أيضاً أن يواجه الحرب مع العراق. ففى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٨٠ غزت قوات صدام حسين جنوب غرب إيران بتشجيع من الولايات المتحدة، وكان هذا يعنى تعليق الإصلاحات الاجتماعية التى خطط لها الخمينى. وكانت الرهائن، طوال تلك الفترة تخدم أهدافاً خاصة، ولم يتم الإفراج عنهم إلا فى ٢٠ يناير ١٩٨١ عندما أصبحوا عديمى الجدوى (أى فى اليوم الذى تولى فيه رونالد ريجان الرياسة الأمريكية).

وكما كان محتماً، فقد شوهت مأساة الرهائن صورة الجمهورية الإسلامية

الجديدة. فرغم الخطاب الطنان عن عتو الشيطان الأعظم فلم يكن ثمة ما هو إسلامي أو ديني في احتجاز الرهائن. بل على العكس، فرغم أن الإمساك بالرهائن لم يلق قبولاً من الإيرانيين، كان بإمكان الكثيرين تقدير رمزيته. فمبنى السفارة يعتبر حيزاً لدولة ما على أرض أجنبية، واحتلال الطلبة لها كان يعني غزواً للسيادة الأمريكية إلا أنه بدا من الصواب بالنسبة للبعض أن يؤسر الأمريكيون في سفارتهم في إيران، لأن الإيرانيين قد شعروا لعقود عديدة أنهم معتقلون في بلدهم بالتواطؤ مع الولايات المتحدة التي دعمت ديكتاتورية بهلوى. وكان هذا سياسة انتقام وليس ديناً. ففي خلال الأيام الأولى لهذا الاحتلال، تم تقييد أيدى وأرجل بعض هؤلاء الرهائن ومنعوا من الحديث وأبلغوا أن الولايات المتحدة قد تخلت عنهم. وفيما بعد، نقل الرهائن إلى أماكن مريحة؛ وهذا النمط من القسوة وسوء المعاملة يتعارض مع البصيرة الرئيسية للأديان السماوية بما فيها الإسلام. فليس ثمة مصداقية لأية تعاليم أو ممارسات دينية لا تؤدى إلى التعاطف العملي. وتتوافق البوذية والهندوسية والأديان التوحيدية في نظرتها للحقيقة المقدسة على أنها ليست محض تسام «هناك في الأعالي»، لكنها موجودة في كل فرد بشرى، الذى يجب أن يلقى الاحترام والتكريم المطلق من هذا المنطلق. إلا أن العقائد الأصولية اليهودية والمسيحية والإسلامية لا يمكن لها اجتياز هذا الاختبار الحاسم إن هي أصبحت شريعة غضب وكراهية.

وحقاً، فهذا النمط من احتجاز الرهائن ينتهك القوانين الإسلامية المحددة بشأن معاملة الأسرى. فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بمعاملة أعدائهم معاملة إنسانية ويؤكد على عدم شرعية احتجاز الأسرى إلا في حالة الحرب النظامية (ويصبح الإمساك بالرهائن الأمريكيين واحتجازهم لا مجال له في ضوء هذا). ولا يجوز إساءة معاملة الأسرى، بل يجب الإفراج عنهم، إما على سبيل المعروف أو نظير فدية بعد انتهاء أعمال القتال. وإن لم يفتد أحد الأسير، فله الحرية في البحث عن عمل يتكسب منه حتى يفدى نفسه، وعلى المسلم الذى يوكل إليه الحفاظ عليه أن يساعد الأسير في الحصول على الفدية المطلوبة من موارده هو. وثمة حديث ينسب إلى الرسول عن معاملة الأسرى يقول فيه إن على المسلمين إطعامهم من طعامهم وإلباسهم من لباسهم ومساعدتهم إن أوكل إليهم عمل شاق. ولابد أن احتجاز

الرهائن أيضاً لا يلقى قبولاً من الشيعة الذين يبجلون الأئمة الذين أسرهم الحكام الطغاة في أراضي غريبة إرضاء لمصالحهم الشخصية. وقد يكون لاحتجاز الأسرى بهذا الأسلوب صدى أو معنى سياسى، إلا أنه لا ينتمى للدين أو الإسلام.

إن الأصولية عقيدة قتالية ترى نفسها تحارب من أجل البقاء في عالم معاد مما يؤثر في رؤيتها ويشوهها أحياناً. وكما رأينا، كان الخمينى يعانى من تخيلات مرضية تصيب الكثير من الأصوليين. ففى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٧٩، وعقب احتجاز الرهائن، احتل الحرم المكى عدة مئات من الأصوليين السنيين وأعلنوا أن قائدهم هو المهدى المنتظر. وأدان الخمينى هذا الكفر كفعل مشترك من الولايات المتحدة وإسرائيل. ويظهر هذا النمط من التفكير المؤامراتي عادة حينما يشعر الناس أنهم مهددون. وكان المشهد فى إيران قاتماً. فقد كان ثمة إحباط من النظام رغم احتفاظ الخمينى بشعبيته الشخصية. ولم يكن يسمح بأى نقد أو معارضة للحكومة. وخلال عام ١٩٨١ تدهورت علاقات الخمينى بكبار آيات الله، وكانت ثمة حالة حرب معلنة بين الإسلاميين الراديكاليين الذين أرادوا العودة الكاملة لشريعة الشيعة من جانب، وبين العلمانيين والأشخاص من خارج المؤسسة الدينية من جانب آخر. وتمت الإطاحة ببنى صدر فى ٢٢ يوليو عام ١٩٨١ هرب بعدها إلى باريس وكان قد تولى رئاسة الجمهورية لمدة عام واحد. وفى ٢٨ يونيه قُتل حليف الخمينى الأول آية الله بهيشتى مع خمسة وسبعين عضواً من حزب الثورة الإسلامية فى هجوم بالقنابل على مقر الحزب. وكان الخمينى، حتى هذا المنعطف، قد فضل أن يولى أشخاصاً من غير رجال الدين الوظائف الرئيسية، إلا أنه فى أكتوبر سمح لحجة الله خامينى أن يصبح رئيساً للجمهورية. وأصبح رجال الدين أغلبية فى المجلس. وبحلول عام ١٩٨٣ تم قمع كل المعارضة للنظام. والتجأت منظمة مجاهدى خلق إلى العمل السرى بعد رحيل بنى صدر، وتم حل الجبهة القومية، والحزب القومى الديموقراطى الذى كان يرأسه حفيد مصدق، والحزب الجمهورى الشعبى الإسلامى برئاسة شريعات مادارى،وبشكل متزايد أخذ الخمينى يدعو إلى «وحدة التعبير».

وكما يحدث عادة بعد الثورات، بدأ النظام الجديد أوتوقراطياً مثل سابقه وأخذ

الخميني، حينما حاصر الأعداء النظام، يصر على التطابق الأيديولوجي مثل الثوار المؤدلجين العلمانيين الحداثيين الآخرين، إلا أن هذا مثّل انحرافاً جديداً بالمعنى الإسلامي. فالدين الإسلامي، مثل اليهودية، يطالب بتطابق الممارسات وليس بأرثوذكسية العقيدة على الإطلاق. وكان يفترض أن «يحاكي» الشيعة السلوك الديني لمجتهد ما، إلا أنهم لم يتوقع منهم أبداً الاتفاق والتطابق مع معتقداته. وأصر الخميني على أن يقبل الإيرانيون نظريته بشأن ولاية الفقيه. وسحق كل المعارضة. ورأى أن الناس لن يبلغوا الكمال الروحاني الذى أراده لهم إلا بتبنيهم الأفكار الصحيحة. فلا مجال لديموقراطية الآراء، إذ إن على الناس اتباع الفقيه الأعلى الذى منحته رحلته «العقيدة الكاملة»، وحينذاك يصبح باستطاعتهم اتباع طريق الأئمة. وهذا لا يعني الديكتاتورية. فالمسلمون بحاجة للوحدة إن أرادوا البقاء في عالم معاد. كما أخبر الخميني وفداً من أذربيجان أن «الإسلام يواجه اليوم الكفر والأعداء. ونحتاج إلى القوة التي يمكننا الحصول عليها من التوجه إلى الله العلي الكريم، ومن خلال توحيد التعبير». كما أنه ليس بوسع المسلمين التقاتل فيما بينهم إن أرادوا مواجهة القوى العظمى. ورأى الخميني أنه يجب اتخاذ خطوات قاسية لإعادة توحيد إيران وإعادتها مرة أخرى إلى المثال الإسلامي بعد أن انقسمت لمدة طويلة إلى «أمتين» نتيجة لعملية التحديث.

وأصاب الغربيين الرعب حينما سمعوا الخميني يخبر الآباء بنبذ أبنائهم المعادين للنظام، وأن الإيرانيين الذين يتفاكهون عن أمور خاصة بالدين هم مرتدون يجب إعدامهم. فقد كان هذا انتهاكاً لمثل الحرية الفكرية التى أصبحت مقدسة في أوربا وأمريكا. إلا أن الغربيين أجبروا أيضاً على ملاحظة كيف أن الخميني لم يفقد حب الجماهير له خاصة رجال البازارات وطلبة المدارس والعلماء الأقل مرتبة والفقراء. فلم يشمل برنامج الشاه التحديثي هؤلاء، كما أنهم كان باستطاعتهم فهم الخميني لا الغرب الحديث. فقد ظلوا يفكرون ويتحدثون بأسلوب ديني ما قبل حداثي لا يستطيع المحدثون الغربيون استيعابه. إلا أن الخميني لم يضف على نفسه مظهراً باباوياً. فقد أصر على أن «عصمته» لا تعني أنه لا يخطئ. وكان يضيق ذرعاً بأتباعه الذين يأخذون كلمته على أنها مقولات منزلة. فأخبر رجال الدين في مجلس الأمناء في ديسمبر عام ١٩٨٣ قائلاً: «إن هذا لا يعني أنه عليكم

التمسك بما قلته لمجرد أنني تفوهت به أمس».

غير أن «توحيد التعبير» كان قيداً، وقد يعتبره البعض تشويهاً للإسلام. فقد اصر الأصليون اليهود والمسيحيون أيضاً على التطابق الدوجماتي مؤكدين ـ بنبرة حادة أحياناً ـ أن رؤيتهم للعقيدة كانت وحدها هي المشروعة. وقلص «توحيد» الخميني «للتعبير» سياسات الإسلام إلى أيديولوجيا. كما أنه بإعطائه السيادة لنظرياته ونشرها كانت ثمة مخاطرة أن تميل إلى الوثنية، أى الإعلاء من شأن التعبير البشرى على الحقائق الإلهية ليحتل مكانة مطلقة. وكان هذا أيضاً قد نجم عن شعور الخميني بالخطر. فقد استمر لسنوات يقاتل نظاماً علمانياً مدمراً للدين. وكان حينذاك يقاتل صدام حسين، على حين أنه كان شديد الإدراك للعداء الدولى المتطرف للجمهورية الإسلامية. فكان «توحيد التعبير» أداة دفاع. فبجعله إيران بلداً إسلامياً مرة أخرى، كان الخميني يقيم موطناً مقدساً محدداً في عالم لا ربانى أراد تدميره. وكانت خبرة القمع والشعور بالخطر، وإدراكه أنه كان يحارب ضد طبيعة الأشياء في عالم معلمن بشكل متزايد قد نتج عنه روحانية قتالية ونسخة محرّفة من الإسلام. فقد تركت خبرة القمع جروحها وولدت رؤية دينية قمعية.

وكان الخميني على يقين أن الثورة كانت تمرداً على البراجماتية العقلانية للعالم الحديث. فقد برهن الناس أنهم على استعداد للموت كي ينجزوا نظاماً للحكم ذا أهداف سامية. وسأل الخميني جمهوراً من الحرفيين في ديسمبر عام ١٩٧٩ «هل يرغب أحدكم أن يستشهد ابنه من أجل الحصول على مسكن حسن؟ فهذه ليست القضية. فالاستشهاد معنى به العالم الآخر. وهذا هو الاستشهاد الذى يسعى وراءه كل القديسين والأنبياء.. ويريد الناس هذا المعنى». ولا تستطيع العقلانية العلمانية الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالمعنى النهائي للحياة؛ فقد كان هذا دائماً محدودا في دائرة الأسطورة. وقد أدى التخلي عن المنطق الروحاني الأسطورى في الغرب، بين البعض، إلى الخواء المحسوس الذى وصفه سارتر بالثقب المشكل على هيئة الرب. وكان إيرانيون كثيرون قد أصابهم الاغتراب للغياب المفاجئ «للباطن» من حياتهم اليومية والسياسية. واعتقد الخميني أن البشر كائنات ثلاثية الأبعاد؛ فإن لهم احتياجات روحانية وأيضاً احتياجات مادية، وبتقديمهم البرهان على أنهم

مستعدون للموت في سبيل دولة جعلت الدين مركزياً لهويتها، فهم بذلك يحاولون استعادة إنسانيتهم كاملة. وحتى خلال المأزق، لم ينس الخميني أبداً شق السياسة المتسامي. فحينما قامت الحرب، اقترح بني صدر أنه قد يكون من المفيد الإفراج عن أفراد هيئة الأركان العسكرية الذين كانوا يعملون مع الشاه من أجل إدارة العمليات الحربية. ورفض الخميني هذا قائلاً إن الثورة لم تكن ثورة من أجل الازدهار الاقتصادي أو سلامة الأراضي والحدود. واستشهد برواية عن الإمام علي أثناء صراعه في الشام مع معاوية الذي تحدى حكمه. فقد ألقى علي خطبة في الجنود عن التوحيد. وحينما سأله جنوده عما إن كانت الخطبة مناسبة في ذلك الوقت أجاب علي بأن هذا ما كانوا يقاتلون معاوية من أجله، وليس من أجل كسب دنيوي. فقد كانت المعركة من أجل الحفاظ على وحدة الأمة التي يجب أن تعكس وحدانية الله. أي أن المسلمين كانوا يقاتلون من أجل التوحيد وليس من أجل غزو الشام.

ورغم أن هذا كان باعثاً للإعجاب إلا أنه مثّل مشكلة. فالبشر يحتاجون إلى المعنى وإلى المنطق الروحاني، إلا أنهم يحتاجون أيضاً إلى فكر منطقي عقلاني صلد. ولم يكن ثمة غنى عن هذين المجالين في العالم ما قبل الحديث. والآن، فكما لا يمكن شرح الأسطورة بلغة عقلانية أو منطقية يصبح التعبير عنها في السياسات العملية محالاً. وظل هذا يمثل صعوبة أدت في بعض الأحيان إلى فصل واقعي بين الدين والسياسة. وقد أوصت شريعة الأئمة بأن هناك عدم توافق بين الرؤية الروحانية والبراجماتية الصلدة التي تُتطلب من رأس الدولة. إلا أن الخميني كان يجعل التمييز الحاسم بين المنطق الروحاني والفكر المنطقي العقلاني ضبابياً. لهذا كانت سياساته كارثية. فقد أصاب الاقتصاد هبوط حاد مفاجئ من عائدات البترول بعد أزمة الرهائن، ونتيجة لعدم وجود استثمار سليم للدولة. كما حرمت التطهيرات الأيديولوجية مؤسسات الدولة والصناعات من الإداريين الأكفاء. وأدى عداء إيران للغرب إلى حرمانها من المعدات الأساسية وقطع الغيار والمشورة الفنية. وبحلول عام ١٩٨٢ ارتفع معدل التضخم ووجد نقص حاد في البضائع الاستهلاكية وزادت نسبة البطالة لتصل إلى ٣٠٪ من عامة السكان (٥٠٪ في المدن). وأصبحت معاناة الشعب محرجة لنظام وضع الخير الجماعي للشعب على

قمة أجندته الأصلية حينما أتى إلى السلطة لأسباب دينية. وبذل الخميني وسعه من أجل الفقراء. فأنشأ «صندوق البؤساء» من أجل رفع المعاناة عن الذين قاسوا شظف العيش في ظل حكم أسرة بهلوى. وأمدت الجماعات الإسلامية في المصانع والورش العمال بقروض بدون فوائد. وفي المناطق الريفية، ألحق «جهاز الإنشاء» الشباب بعمليات بناء منازل للفلاحين، وبمشاريع زراعية وصحية وخيرية خاصة في مناطق الحرب. إلا أن هذه المجهودات أفسدتها الحرب التي لم تكن من صنع الخميني.

وكان الخميني مدركاً للتوتر بين ما هو روحاني وما هو عملي. وكان يعني أن الدولة الحديثة بحاجة إلى إسهام شعبي وحكومة تمثل الشعب تمثيلاً كاملاً. وكما اكتشف الغرب في سيرورة تحديثه، فإن هذا هو النمط الوحيد من الحكم الذى يصلح لمجتمع صناعي تكنولوجي. وكانت نظرية «ولاية الفقيه» محاولة منه لتوفير سياق إسلامي للمؤسسات السياسية الحديثة لإضفاء معنى عليها لدى الشعب. كما يضفي الفقيه الأعلى ومجلس الأمناء على المجلس النيابى المنتخب أهمية روحانية ودينية يحتاجها الشعب المسلم الذى لم يكن باستطاعته التواصل مع المثال الغربي العلماني. ومن هذا المنطلق، كانت ولاية الفقيه محاولة لإمداد الأنشطة العملية للمجلس النيابى بأساس روحاني ولاحتواء ما هو حديث في رؤية موروثة. إلا أن الخميني كان قد طور نظرية ولاية الفقيه في مدرسة بالنجف، وما بدا صحيحاً على الورق، برهن على أنه إشكالي حينما جرى تطبيقه في إيران. واتضح هذا حتى منذ وقت مبكر عام ١٩٨١، واستمرت هذه الصعوبة تقلق الخميني طوال الفترة الباقية من حياته.

وفي عام ١٩٨٣ اقترح المجلس بعض إصلاحات الأراضي الهامة التي تضمن توزيعاً أكثر عدالة للموارد. وتعاطف الخميني مع هذه المبادرة التي كان من شأنها إفادة الشعب رغم معارضتها لحرفية الشريعة. وكان يدرك أنه إن لم تنجز إيران هذا الإصلاح سيظل نظامها زراعياً وإقطاعياً وسيكون أى تحديث أمراً سطحياً. إلا أن مشروع الإصلاح الزراعي واجه المصاعب فطبقاً للدستور. كان على كل التشريعات أن تحوز على موافقة مجلس الأمناء الذى كان له حق رفض القوانين التي

يراها غير إسلامية. وكان كثير من العلماء في المجلس يملكون أراضي شاسعة، ومن ثم، مارسوا حق النقض لدى عرض مشروع القانون عليهم. وحاول الخميني التفاهم معهم. وقال إن رجال الدين «لا يجوز لهم، على أية حال، التدخل في أمور هم غير مؤهلين لها». وأن هذا «سيكون خطيئة لا تغتفر، لأنها ستؤدى إلى فقدان الأمة ثقتها في رجال الدين». وكان رجال الدين ملمين بالشريعة والفقه، لكنهم لا يعرفون الاقتصاديات الحديثة، ولابد للجمهورية الإسلامية أن تكون دولة حديثة. الأمر الذى يتطلب خبراء يعملون في مجال خبرتهم.

إلا أن الطريق المغلق الذى وصلت إليه الأمور استمر كما هو. ورفض مجلس الأمناء أن يتزحزح عن موقفه في هذا الشأن. لذا، التجأ الخميني إلى معالجة أكثر روحانية. فأخبر مجموعة من رجال الدين، في مارس ١٩٨١، أنه «لا يجوز أن يتوقع أحد أن يحاول إصلاح الآخر إن لم يبدأ بإصلاح نفسه» فلا يستطيع رجال الدين إعادة الناس إلى الإسلام إن ظلوا هم تعوقهم الأنانية وتحتجزهم صراعات القوى التي لا طائل من ورائها. فعلى كل واحد من العلماء كبح هذه الأنانية التي تعوق تطور هذا البلد الإسلامي؛ وانتهى الخميني إلى أن الحل هو «الوصول إلى مرحلة تتغاضون فيها... عن أنفسكم حيث لا يكون ثمة ذوات.. تتصارعون معها، أو جدل أو عراك». وكان المنبع المباشر لهذا الاعتقاد هو ممارسة الخميني للعرفان الصوفي. فالساعي، وهو يتقرب إلى الله، ينزع عن نفسه تدريجياً الرغبات الأنانية إلى أن يستطيع إبصار «رؤية الله» التي تحدث التغيير. إلا أن ديناميـة السياسات الحديثة تختلف تماماً عن التأمل الروحاني. وأصم العلماء ومجلس الأمناء آذانهم عن التماسات الخميني فعادة ما تجتذب السياسة الأفراد إلى درجة عالية من الذاتية. كما أن المؤسسات الحديثة تعمل وفقاً لتوازنات مصالح متناسقة وليس بإنكار الذات. وحينما طور الخميني نظرية ولاية الفقيه اعتقد أن العلماء ومجلس الأمناء سيؤكدون على القيم الصوفية الباطنية لغير المرئي؛ وبدلاً من هذا، فقد بدوا ملوثين، غارقين في وحل مادية الظاهر مثل غيرهم من البشر العاديين.

ولكي يكسر حالة التوقف، حث رئيس المجلس حجة الإسلام هاشمي رفسنجاني

الخميني على استعمال سلطته كفقيه أعلى كي يوافق المجلس على مشروع القانون. وكان الدستور يمنح الفقيه الأعلى سلطة القول الفصل في كل الشئون الإسلامية ونقض قرارات مجلس الأمناء. واقترح رفسانجاني أن باستطاعة الخميني الاستشهاد بالمبدأ الإسلامي الخاص بالمصلحة الذى يسمح للمشرع باستحداث تشريعات لأوامر ثانوية تتعلق بقضايا لا ينص عليها القرآن الكريم والسنة. وكان قد بدأ يُدرك أن مركز الفقيه الأكبر قد يضعف سلطة المؤسسات التي تحتاجها الجمهورية الإسلامية للبقاء في العالم الحديث. وكان الخميني رجلاً مسناً، ورأى أنه إن استمر في التدخل في قرارات مؤسسات الحكومة وقلبها على أساس من كاريزمته الشخصية، فمن المحتمل أن يفقد المجلس النيابي ومجلس الأمناء مصداقيتهما واستقلالهما وألا يكتب للدستور الإسلامي البقاء بعد موته. وهكذا استمر المأزق بين مجلس الأمناء والمجلس النيابي.

وحاول الخميني إلحاق الخزى بالعلماء بأن أشار إلى مثل الأطفال الإيرانيين الذين يستشهدون كل يوم في الحرب بين العراق وإيران. وكان هؤلاء الأطفال الشهداء يوضحون الأخطار الأخلاقية لترجمة الرؤية الصوفية إلى سياسة واقعية. فمنذ اللحظة التى أعلنت فيها الحرب تزاحم المراهقون فى المساجد وهم يتوسلون أن يرسلوا إلى الجبهة. وكان الكثيرون منهم ينتمون إلى المناطق السكنية الفقيرة ومدن الصفيح، وقد تحولوا إلى راديكاليين أثناء الثورة. وفيما بعد، وجدوا أن حياتهم الكئيبة التى تبعث على السأم بشكل لا مفر منه هو سقوط مفاجئ من الذروة. وكان بعضهم قد التحق «بصندوق البؤساء» أو عمل فى «جهاد التعمير» إلا أن كل هذا لا يقارن بنشوة أرض المعركة. وكانت إيران غير معدة تقنياً للحرب، فقد كان هناك انفجار سكاني وكان الشباب يشكلون الأغلبية فى البلاد. وأصبح «صندوق البؤساء» نواة جيش قوامه عشرون مليوناً من الشباب كانوا متشوقين للفعل. وأصدرت الحكومة مرسوماً بالسماح للأطفال الذكور ابتداء من سن الثانية عشرة أن يتطوعوا للذهاب إلى الجبهة بدون إذن من والديهم ويصبحون بهذا فى رعاية الإمام ويمكنهم ضمان مكان لهم فى الجنة فى حالة وفاتهم. وتدفق عشرات الآلاف من المراهقين وهم يرتدون عصابات رأس حمراء التى هى شارات الشهداء إلى منطقة القتال. وقام بعضهم بإزالة الألغام وهم يهرولون فى مقدمة القوات

لتتفجر فيهم تلك الألغام وتقطعهم إرباً. وعمل بعضهم كمفجرى عبوات انتحارية يهاجمون بها دبابات العراقيين بأسلوب الطيارين الفدائيين اليابانيين Kamitaze. وتم إرسال الكتبة إلى الجبهة خصيصاً ليكتبوا وصايا هؤلاء الصبية التى كانت كثيراً ما تأخذ شكل خطابات إلى الخمينى يتحدثون فيها عن النور الذى غمر به حياتهم وبهجة القتال «إلى جانب أصدقاء فى سبيلهم إلى الجنة».

وأعاد هؤلاء الصبية إيمان الخمينى بالثورة إذ كانوا يتبعون مثل الحسين ويموتون كى «يشهدوا أولوية غير المرئى». وهذا هو أسمى درجات التنسك والزهد الذى يتسامى فيه المسلم على نفسه ويصل إلى حد التوحد مع الإله. وخلافاً لمن يكبرونهم سناً، كف هؤلاء الأطفال على أن يكونوا «عبيداً للطبيعة» يزاوجون بين أنفسهم ومصالحها والعالم المادى. فقد كانوا يساعدون إيران على الوصول إلى «مكانة لا يمكننا وصفها إلا بالقول إنها بلد إلهى» إذ إن الناس حينما يركزون على «ما هو مادى ودنيوى يصبحون أدنى من البشر». وأعلن الخمينى أن «الموت لا يعنى الفناء، إنه الحياة». وأصبح الاستشهاد أمراً حاسماً فى ثورة إيران ضد البراجماتية العقلانية للغرب، وضرورياً للجهاد الأكبر فى سبيل روح الأمة. إلا أنه رغم تأكيد الخمينى على أن الموت ليس فناء، كان هناك نوع من العدمية فى البعث بآلاف من الأطفال إلى موت مبكر عنيف؛ الأمر الذى يناقض القيم الإنسانية الأساسية ذات الأهمية القصوى للمتدينين والعلمانيين معاً والتى تتعلق بحرمة الحياة، وبدوافعنا الفطرية لافتداء الأطفال بحياتنا إن استوجب الأمر. وكان التكريس للطفل الشهيد تشويهاً قاتلاً آخر للعقيدة كان ينزع إليه جميع الأصوليين فى الديانات السماوية. وربما ينبع هذا من الرعب الذى ينجم عن القتال ضد أعداء أقوياء يسعون إلى تدميرنا. إلا أنه يبرهن أيضاً على ترجمة إلزام صوفى أسطورى إلى خطط لسياسيات براجماتية أو عسكرية أو سياسية. فحينما تحدث الملا صدره عن الموت الصوفى للذات، لم يخطر له موت آلاف الصبية الجسدى الطوعى. ومرة أخرى، فإن ما يبدو مؤثراً على المستوى الروحانى، قد يصبح مدمراً ولا أخلاقياً إن هو ترجم ترجمة حرفية وعملية فى العالم الدنيوى.

وكان من الواضح أن عملية إنشاء دولة إسلامية قد برهنت على أنها شديدة

الصعوبة. ففي ديسمبر ١٩٨٧، نظر الخميني، الذي كان قد أصابه الوهن والمرض، مرة أخرى في أمر المسألة الدستورية. وكان مجلس الأمناء هذه المرة يقف حجر عثرة في سبيل قوانين العمل حيث ادعى أنها تتعارض مع الشريعة. وأعلن الخميني الذي كان يدعم المجلس النيابي الشعبي ضد العلماء النخبويين الرجعيين أن للدولة سلطة إبدال النظم الإسلامية الأساسية إذا اقتضى خير الناس هذا، وأن الشريعة هي قانون قبل صناعي ويقتضي الأمر تكييفها جذرياً مع مقتضيات الحياة الحديثة. وأعلن الخميني أن بإمكان الدولة إبدال:

«تلك النظم الإسلامية الأساسية بأى نوع من النظم الاجتماعية والاقتصادية ونظم العمل والشئون المدينية والزراعية، وأن تجعل الخدمات... التى تحتكرها الدولة أداة لتنفيذ السياسات العامة والشاملة».

وأتى الخميني هنا بإعلان للاستقلال. فعلى الدولة أن «تحتكر» مثل هذه الأمور العملية، وأن تستقل عن التشريعات الدينية الموروثة المقيّدة. ثم ذهب إلى أبعد من هذا بعد أسبوعين. فقد كان الرئيس خامينى يفسر تلك الملاحظات على أنها تعنى أن للفقيه الأعلى حق تأويل الشريعة. وأجابه الخمينى أن هذا لم يكن مقصده. وكرر، دون ذكر لدور الفقيه، أن للحكومة السلطة، ليس فقط لتأويل القانون الإلهى، لكنها أداة تنفيذ هذا القانون نفسه. فالحكومة جزء أساسى هام من الحكم السماوى الذى أولاه الله نبيه وله «الأولوية على غيره من الأوامر السماوية الثانوية»، لدرجة أن له الأسبقية فى أهميته على بعض أركان الإسلام كالصلاة وصوم رمضان والحج.

«فللحكومة السلطة أن تلغى من جانب واحد أى إجماع تشريعى.. إذا تعارض هذا الاتفاق مع مصالح الإسلام والبلاد. ولها أن تمنع أى أمر، سواء كان دينياً أم دنيوياً، إذا كان ضد مصالح الإسلام».

وكان الشيعة قد أصروا لقرون على فصل المجالات؛ فمنطق الدين المطلق الروحانى يضفى المعنى، إلا أنه واضح التميز عن منطق السياسة العقلانى البراجماتى. والآن، أصر الخمينى على أنه لا يجوز إعاقة الحكومة فى مسعاها النفعى فى سبيل مصالح الشعب والخير الأعظم للإسلام.

وافترض البعض أن الخميني يعني حكومته هو واعتقدوا أنه كان يُعلي من شأن مبدأ ولاية الفقيه إلى مكانة تسمو على أركان الإسلام. واتهم المراقبون الغربيون الخميني بجنون العظمة. إلا أن رفسنجاني، رئيس المجلس، أوضح أنه لم يذكر الفقيه. واقترح أنه قصد المجلس بلفظ الحكومة. وفي خطبة غير عادية يوم ١٢ يناير عام ١٩٨٨ أتى رفسنجاني بتأويل جديد لولاية الفقيه. فقال إن الله لم ينزل على الرسول في القرآن الكريم كل التشريعات التي تحتاجها الأمة. وأوكل سلطته إلى محمد ﷺ الذي أصبح نائبه وسمح له أن يأتي بمبادراته في تلك الأمور الثانوية. وبالقياس، أوكل الإمام الخميني، الفقيه الأعظم، سلطته إلى المجلس الذي باستطاعته صياغة قوانين جديدة بمبادرة منه. ورداً على التساؤل عما إذا كان هذا يعني أن إيران تحتضن أسلوب الديموقراطية الغربي أجاب بالنفي المطلق. فلم يأت هذا الحق في التشريع من الشعب، بل من الله الذي أوكل السلطة إلى الرسول ثم إلى الأئمة، والآن، فقد أوكلها إلى الإمام الخميني، وكانوا هم -وليس الشعب- من أضفى الشرعية على المجلس. وتجادل رفسنجاني قائلاً «وهكذا ترون، فالديموقراطية بهذا تأخذ شكلاً أفضل من شكلها في الغرب»، لأن مصدرها الله. وهذا «أسلوب صحي لحكم الشعب بواسطة الشعب بإذن من ولاية الفقيه». وهكذا دفعت الحاجة إلى وجود دولة حديثة بإيران باتجاه الدولة الديموقراطية، التي أتت هذه المرة في هيئة مجموعة إصلاحات متكاملة إسلامية يمكن للناس التواصل معها، وتتصل بموروثاتهم الشيعية.

وقد يكون رفسنجاني في خطبته هذه قد تخطى «الرسالة البابوية» إلا أن هذا أسعد الخميني. وفي انتخابات ربيع ١٩٨٨ طلب من الشعب مجرد مساندة المجلس دون ذكر لرجال الدين. ولم يفت على الشعب، الذي كان يتطلع إلى إعادة التشييد الاقتصادي لوم رجال الدين المتضمن في هذا الطلب. وفقد العلماء نصف مقاعدهم. وكان ٦٣ فقط من بين أعضاء المجلس المائتين قد تلقوا تعليماً في «المدارس». ومرة أخرى بدا الخميني سعيداً بهذه النتائج. وفي شتاء عام ١٩٨٨ أعطى الضوء الأخضر للسياسيين الأكثر براجماتية الذين كانوا يسعون إلى تعديل الدستور. وأصر في أكتوبر على عدم السماح للعلماء بإعاقة تقدم البلاد حيث يجب أن يقود برنامج التشييد «الخبراء»، خاصة الوزراء ولجان المجلس المناسبة..

ومراكز العلوم والأبحاث.. والمخترعون والمكتشفون، والمتخصصون الملتزمون». ثم سمح بعد شهرين باجتماع لجنة لمراجعة الدستور واستاء الإسلاميون الأكثر راديكالية الذين رأوا أن أية إذابة لولاية الفقيه خيانة للثورة، إلا أن البراجماتيين بدوا وقد كسبوا الموقف بموافقة من الإمام.

كان هذا سياق الصراع الداخلي الذى أصدر فيه الخمينى فتواه فى فبراير عام ١٩٨٩، أى قبل وفاته بشهور أربعة، ضد الكاتب البريطاني الهندى سلمان رشدى. وكان رشدى فى روايته «آيات شيطانية» قد قدم ما اعتبره مسلمون كثيرون صورة ضالة كافرة للرسول، إذ صوره (والعياذ بالله) شهوانياً ومدعياً وطاغية. أما ما هو أكثر خطورة من هذا، فهو إيعازه أن القرآن قد دنسه أثر شيطاني. والرواية، تعبر ببراعة عن التشوش المجنون لعالم ما بعد الحداثة حيث لا توجد حدود،، أو يقين، أو هوية مميزة بوضوح. وكانت الفقرات التى سببت النفور والغضب قد سُجلت على هيئة أحلام أو فانتازيا لنجم سينمالى هندى استؤصل من جذوره ويعانى من انهيار. وكان قد استبطن معاداة الغرب للإسلام. وأيضاً، كان كفره هذا محاولة منه لإلغاء التمسك بآثار الماضى والحصول على هوية مستقلة محررة من المبادئ القديمة التى حددت شخصيته. إلا أن الكثيرين من المسلمين رأوا صورة الرسول هذه جارحة ومنفرة بشكل عميق. وبدت وأنها انتهاك لشيء مقدس فى شخوصهم. وأخبر زكى بدوى، أحد أكثر المسلمين البريطانيين ليبرالية صحيفة الجارديان أن كلمات رشدى هذه «أعظم سوءاً بكثير من لو أنه اغتصب أحد بناتنا». فممارسة المسلمين للإسلام، تجعلهم يستبطنون شخص الرسول فى كيانهم لدرجة أنهم شعروا بالرواية وكأنها «سكين غرس فى جسدك، أو أن شخصاً ما قد اغتصبك». واندلعت المظاهرات فى الباكستان، وتم إحراق الرواية بأسلوب طقوسى فى برادفورد بإنجلترا حيث يوجد تجمع إسلامى كبير من أصول هندية وباكستانية. وقد عارض هؤلاء القوانين البريطانية الخاصة بسب المقدسات حيث إنها تعاقب فقط من يوجهون الإهانات للدين المسيحى. وكان الغاضبون يدركون التحيز ضد الإسلام المتفشى فى بريطانيا. وفى ١٣ فبراير، شاهد الخمينى الشرطة الباكستانية وهى تطلق النار على المتظاهرين، وانتهى إلى أن الرواية لابد وأن تكون شريرة. وأمرت فتواه المسلمين فى أنحاء العالم بإهدار «دم سلمان رشدى

وناشريه حيثما وجدوا».

وأدينت الفتوى في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الشهر التالي من أربعة وأربعين من مجموع خمسة وأربعين عضواً على أنها غير إسلامية. فمن غير المسموح به في الشريعة الإسلامية إدانة المذنب دون محاكمة أو تطبيق الشريعة في بلاد غير إسلامية. وكانت الفتوى تشويهاً آخر للإسلام. وقد سبق وأن عارض الملا صدره، وهو أحد مرشدي الخميني الروحانيين، بشدة مثل هذا القمع وعنف محاكم التفتيش وكان يصر على حرية الفكر، وانبثق الغضب الإسلامي مرة أخرى من اليقين أن الإسلام قد تلقى ضربة قاضية أخرى. فقد كانت سنوات القمع وتشويه السمعة والهجمة العلمانية قد خلفت الندبات في أحاسيس المسلمين. وكانت الفتوى فعل حرب؛ وخبرها العلمانيون والليبراليون في الغرب الذين شعروا بانتهاك أقدس قيمهم كفعل حرب، وبالنسبة لهم، فمعيار كل شيء هو البشرية وليس إله خارج نطاق الطبيعة. وطبقاً لهذا، فيجب أن يكون لدى الرجال والنساء حرية تحقيق إمكاناتهم في مساعيهم نحو الجودة الفنية الإبداعية. أما بالنسبة للمسلمين، حيث القيمة الأسمى هي حاكمية الله، فإن هذا غير متقبل. وكانت قضية رشدي تصادماً بين أرثوذكسيتين لا يمكن تقابلهما؛ ولم يتمكن أي من الطرفين من فهم وجهة نظر الطرف الآخر حتى إن المجموعات المختلفة التي تعيش في نفس البلدة وجدت نفسها متعارضة تعارضاً تاماً مع بعضها البعض.

وبعد وفاة الخميني عام ١٩٨٩ أصبح الاستقطاب بين المتدينين والعلمانيين واضحاً. وكان الغرب ينظر للخميني على أنه العدو. وتملك الناس الذهول لدى رؤيتهم حزن الإيرانيين غير المفتعل في جنازته حيث تدفقت الجموع حول نعشه بانفعال لدرجة أن سقطت الجثة من النعش. وبدا الأمر كما لو أنهم أرادوا الإبقاء على الإمام معهم إلى الأبد. ولم تنهار الجمهورية الإسلامية بعد وفاته لكنها أبدت علامات نحو مرونة أكثر كثيراً. ورغم أن الفتوى، مثل أزمة الرهائن، قد أثارت عداوة الغرب، إلا أن إيران بدت وكأنها تتحرك باتجاه الروح الغربية. فأوضح الدستور الجديد، الذي تمت الموافقة عليه في ٩ يوليو عام ١٩٨٩ توجهاً ملحوظاً باتجاه أسلوب حكم أكثر علمانية وبراجماتية. فلم تعد القوى الروحانية الصوفية

تُنسب للفقيه الأعظم، كما أن الفقيه لم يحتل مركزه عن طريق مناداة الشعب به. فكان عليه أن يكون على إلمام بالشريعة، ولم يعد الأمر يتطلب أن يكون أحد المجتهدين الكبار. وأدى الأمر إلى وجود أكثر من مرشح محتمل وكانت «الحصافة السياسية» هي الصفة المحددة للقائد الجديد. واحتفظ مجلس الأمناء بحقه في النقض، إلا أن مجلس «تمييز المصلحة» الذى أوكل إليه القضاء في كل منازعاته مع المجلس حد من سلطته. وتمكن المجلس، نتيجة لهذه التغيرات، من تنفيذ كل الإصلاحات التي كان الأمناء يقفون في سبيلها.

وفي اليوم التالي لجنازة الخميني نودى بآية الله خامينى فقيهاً، ثم أصبح رفسانجاني الرئيس الجديد المنتخب في ٢٨ يوليو ١٩٨٩، وقام بإبعاد الراديكاليين من مجلس وزرائه الذى كان ثلث أعضائه قد تلقوا تعليمهم في الغرب، وضغطوا من أجل استثمارات غربية أكثر وتقليص لدور الحكومة في الشئون الاقتصادية، ذات التوجهات الرأسمالية، إلا أن المشاكل استمرت، حيث ثابر المتشددون في محاربة البراجماتيين؛ وكان باستطاعة مجلس الأمناء إعاقة الإصلاحات، واستمرت أجهزة الدولة معيبة. ويبدو الآن أن احتياجات الدولة تدفع بالإيرانيين إلى تعددية أكثر وعلمنة على أساس شيعي لا على أساس الموروث الغربي. ولم يعد الناس يكنون العداء للقيم الحديثة بالقدر الذى كانوه في الماضي لأنهم يستطيعون مقاربتها من خلال وسط إسلامي.

ويمكن رؤية نقطة التركيز هذه في أعمال عبد الكريم سورش أحد المفكرين القياديين في إيران والذى درس تاريخ العلوم في جامعة لندن واحتل مناصب مهمة في حكومة الخميني بعد الثورة. وهو لا ينتمي الآن إلى المؤسسة السياسية رغم تأثيره القوى على من في السلطة. ودائماً ما تبث محاضراته الأسبوعية في الوسائط الإعلامية كما أنه أحد الخطباء المرموقين في المساجد والجامعات. وأعجب سورش بالخميني وشريعتي، إلا أنه ذهب أبعد منهما. فقد كانت له آراء أكثر تحديداً عن الغرب وذهب لدرجة قوله إنه بنهاية القرن العشرين كان لدى إيرانيين كثيرين هويات ثلاث: ما قبل إسلامية وإسلامية وغربية. وإن عليهم أن يُآلفوا بينها. فليس كل ما هو غربي ملوثا ومسمما إلا أن سورش لا يقبل بالمنطق

العقلاني الغربي المتطرف في راديكاليته. فليس بوسع العقلانية، في رأيه، أن تقدم بديلاً حياً للدين قابلاً للتطبيق. فسيظل البشر بحاجة دائمة إلى الروحانية التي تأخذهم إلى ما وراء الماديات. إلا أن على الإيرانيين أن يقدروا قيم العلم الحديث، وعليهم أيضاً التمسك بموروثاتهم الشيعية، بيد أن الإسلام يجب أن يتغير بمعنى أن يتكيف الفقه التشريعي مع مقتضيات العالم الصناعي ويطور فلسفة عن الحقوق المدنية ونظرية اقتصادية قابلة للصمود في القرن الحادي والعشرين. ويعارض شورش أيضاً حكم العلماء لأن «شئون الدين أعظم أن يتولاها رجال الدين وحدهم». ويتعرض سورش لهجوم كثير من رجال الدين المحافظين إلا أن شعبيته توحي بأن الجمهورية تتحرك باتجاه مرحلة ما بعد الثورة التي ستقترب خلالها من الغرب.

وبدا هذا واضحاً في ٣ مايو عام ١٩٩٧ حينما تولى حجة الإسلام خاتمي رئاسة الجمهورية بأغلبية ساحقة بلغت ٢٢ مليون صوت من مجموع الأصوات وعددها ٣٠ مليون صوت. وسرعان ما أعلن أنه يرغب في إقامة علاقات أكثر إيجابية مع العالم الغربي. وفي سبتمبر عام ١٩٩٨ فصل حكومته عن ا لفتوى ضد رشدى وصدق على هذا التوجه الفقيه آية الله خاميني فيما بعد. إلا أن مجلس الأمناء مازال يعوق إصلاحات خاتمي الذي كان انتخابه إشارة تعبر عن رغبة قطاع كبير من الشعب في تعددية أكثر، وتأويل مرن للشريعة وحماية اقتصادية للمنهوكين وإجراءات أكثر تقدمية بالنسبة للنساء(*). وليس ثمة تراجع عن الإسلام. فما زال الإيرانيون يرغبون في أن تكون حكومتهم ضمن «صفقة» شيعية الأمر الذي يجعل قيم العلم الحديث أكثر قبولاً عما كانت حينما كان ينظر إليها على أنها واردات أجنبية. وقد يفسر الأمر بأنه حينما يتاح للحركات الراديكالية الدينية الإنطلاق، وتجاوز عدوانيتها وغضبها، يصبح بعد ذلك باستطاعتها أن تتعلم التفاعل الخلاق مع موروثات أخرى وأن تتجنب العنف الذي يرتبط بماضيها القريب وتسعى إلى السلام مع أعدائها السابقين فالتدين، حينما يكبت، ينفجر في صورة أعمال عنف

(*) اتضح هذا بوضوح في صيف عام ١٩٩٩ حينما خرج الطلبة الإيرانيون إلى الشوارع للمطالبة بديمقراطية أكثر وحكومة اسلامية لا يحيقها العلماء الرجعيون (المؤلفة)

على جانب عظيم من الحدة.

وقد اتضح هذا في مصر عام ١٩٨١ حينما تملك الحزن من العالم الغربي لدى سماعه عن مصرع أنور السادات على يد الأصوليين السنيين. وكان السادات حاضراً يوم ٦ أكتوبر بصفته الرسمية احتفالاً بإنجازاته في الحرب ضد إسرائيل عام ١٩٧٣. وفجأة توقفت إحدى العربات المشتركة في العرض أمام منصة الرئيس وحينما رأى السادات الملازم خالد الإسلامبولي يقفز من العربة ويهرول باتجاهه، وقف، وهو يظن أنه قادم لتحيته. بيد أنه بدلاً من التحية وجه إليه سيلاً من طلقات المدافع الآلية. واستمر الإسلامبولي يطلق النار على جسد السادات حتى بعد أن أصيب هو في بطنه وهو يصيح «أعطوني هذا الكلب، هذا الكافر». واستغرقت الهجمة خمسين ثانية قتل أثناءها سبعة بالإضافة إلى السادات، وأصيب ثمانية وعشرون آخرون.

وصُدم الغربيون من شراسة الهجمة. فقد كانوا يحبون السادات. فخلافاً للخميني، كان السادات حاكماً مسلماً بإمكانهم فهمه. وكان يبدو متديناً دون أن يكون «متعصباً»، وكانت مبادرته للسلام مع إسرائيل وسياسة الانفتاح قد حازت على إعجاب الغرب. وحضر عدد كبير من الأمريكيين والأمراء الأوربيين والسياسيين ورؤساء الجمهوريات الغربية جنازة السادات، إلا أنه لم يحضرها أي قائد عربي، ولم تحتشد الناس في الشوارع، ولم يبك الشعب المصري السادات، ولم يتزاحموا وقد غمرهم الحزن حول نعشه كما سيفعل الإيرانيون فيما بعد في جنازة الخميني. ومرة أخرى ظهر الغرب والمجتمعات الأكثر تقليدية في الشرق الأوسط على طرفي النقيض غير مستطيعين مشاركة بعضهم البعض رؤيتهم للأحداث.

وكما رأينا، فقد كان ثمة عدد كبير من المصريين رأوا أن حكم السادات يماثل الجاهلية أكثر من مماثلته للإسلام. ففي عام ١٩٨٠، احتل الطلبة من أعضاء الجماعة الإسلامية الذين كانوا قد أمروا بإقامة معسكرهم الصيفي قلعة صلاح الدين يوم عيد الأضحى وشجبوا كامب دافيد وأنور السادات داعين إياه «التتاري»، إشارة منهم إلى أحد الحكام المغول في القرن الثالث عشر الذي كان من المفترض أنه

اعتنق الإسلام إلا أنه كان مسلماً بالاسم فقط. كما التحق أعضاء آخرون من الجماعة المقموعة بشبكة الخلايا السرية التي كرست للجهاد العنيف ضد النظام. وكان خالد الإسلامبولي، الذى درس فى جامعة المنيا، عضواً فى تنظيم الجهاد.

وكان السادات يدرك تلك المعارضة وكان مصمماً على تحاشي مصير صديقه الشاه. وحينما تصاعدت الثورة في إيران، أصدر ما عُرف بقانون العيب عام ١٩٧٨، الذى كان بمقتضاه أى انحراف بالفكر أو الكلمة أو الفعل ضد النظام المؤسسي يعاقب بفقدان الحقوق المدنية ومصادرة جوازات السفر والملكية. وحُظر على المواطنين الالتحاق بأية منظمات أو الاشتراك فى أية إذاعة أو نشر أى شيء ينتقد النظام لأن السادات اعتبر هذا تهديداً «للوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي». ولم يمر حتى التعليق العارض الذى قد يقال فى حضور أفراد عائلة الفرد الخاصة، دون عقاب. وأصبح النظام أكثر قمعاً خلال الأشهر الأخيرة من حياة السادات. فقام يوم ٣ سبتمبر عام ١٩٨١ بتطويق واعتقال ١٥٣٦ شخصاً من منتقديه تضمنوا وزراء وسياسيين ومفكرين وصحفيين ودعاة وأعضاء جماعات إسلامية. وكان أحد هؤلاء المعتقلين هو محمد الإسلامبولي شقيق قاتل السادات.

وباستطاعتنا استبصار دوافع مغتالي السادات من مقال كتبه عبد السلام فرج المرشد الروحي لجماعة الجهاد الذى كان ينتمي إليها الإسلامبولي. وقد نشر المقال بعنوان «الفريضة الغائبة» في ديسمبر عام ١٩٨١ بعد اغتيال السادات وكان المقال لا يستهدف القارئ العام بل اقتصر على كونه دفاعاً عن موقف الجماعة ولذا كان يوزع سراً بين أعضاء التنظيم. ويتيح المقال فرصة فريدة لمعرفة الخطاب الذى كان يتداوله الإسلاميون القتاليون، واهتماماتهم، ومصادر قلقهم ومخاوفهم. وتجادل فرج قائلاً إن للمسلمين مهمة ملحة وعاجلة. فقد أمر الله رسوله بإقامة دولة إسلامية حقة. وبدأ فرج رسالته باستشهاد بآية قرآنية توضح أنه بعد الوحى بثلاثة عشر عاماً فقط كان الله تعالى غير راضٍ عن المسلمين الذين لا يطيعون أوامره: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» (سورة الحديد، آية ١٦). فلابد، وبعد مرور أربعة عشر قرناً أن يكون الله أشد

غضباً بكثير. ولذلك، فعلى المسلمين «فعل ما بوسعهم» لتنفيذ إرادة الله. ولا يجوز أن يكونوا مثل من سبقوهم الذين تصوروا أن بوسعهم إقامة دولة إسلامية دون اللجوء إلى العنف. فالوسيلة الوحيدة هي الجهاد أو الحرب المقدسة.

والجهاد هو «الفريضة الغائبة» التي يشير إليها العنوان. ورغم أن المسلمين لم يعودوا يمارسون ذلك العنف المقدس، فقد تجادل فرج قائلاً إنه أهم فريضة على الإطلاق. وكان هذا تحدياً لقرون من الموروث الإسلامي. وعمد فرج، مثل قطب إلى الانتقائية المتطرفة المشوهة للرؤية الإسلامية كي يثبت قضيته. ومرة أخرى، كانت خبرة القمع هي مصدر هذا التشويه. فأصر فرج على أن السيف هو الوسيلة الوحيدة لإرساء المجتمع العادل واستشهد بحديث ينسب إلى الرسول مفاده أن من كان على غير استعداد للقتال دفاعاً عن دينه مات على غير دين الإسلام أو كمنافق يتظاهر بالإسلام. كما قال إن الله يخاطب المسلمين في كتابه الكريم قائلاً: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» (البقرة / ٢١٦). كما أنه سبحانه يأمر المسلمين قائلاً «فإذا انسلخت الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد». (التوبة / ٥). واعتقد فرج أن آيات السيف هذه قد نزلت على الرسول بعد تلك الآيات التي تحث المسلمين على تحقيق السلام مع أعدائهم ومخاطبتهم بالحسنى. ومن ثم، ألغت الجماعة التعاليم التي يبدو فيها القرآن منكراً للعنف.

إلا أن فرج واجه صعوبة. فقد كان الإسلام يتحدث عن المشركين على حين أن السادات يدّعي أنه مسلم يتبع الأركان الخمسة للإسلام. فكيف للمسلمين أن يحاربوه؟ ووجد فرج ضالته في فتوى ابن تيمية التي تجادل فيها قائلاً إن الحكام المغول الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام في القرن الرابع عشر كانوا في الواقع مرتدين لأنهم كانوا يحكمون وفقاً لقوانينهم بدلاً من أن يحكموا وفقاً للشريعة. أما حكام مصر الحاليون، فكانوا أسوأ من المغول حيث إن قوانين المغول كانت تتضمن، على الأقل، بعض التشريعات المسيحية واليهودية على حين أن التشريع المصري الحالي مؤسس على «قوانين كافرة» من صنع الكفرة وفرضها الكلونياليون

على الشعوب المسلمة. فقال: إن حكام هذا العصر مرتدون. فقد تربوا على موائد الإمبريالية سواء كانت صليبية أو شيوعية أو صهيونية ولا يحملون شيئاً من الإسلام سوى أسمائهم ويزعمون أنهم مسلمون. وكان الطلبة الذين احتلوا قلعة صلاح الدين عام ١٩٨٠ قد قارنوا السادات بالحكام المغول، ويبدو أن أفكار فرج لم تكن مقصورة على مجموعة قليلة من المتطرفين، بل كانت منتشرة وتجرى مناقشتها بين أعداد كبيرة في أوائل الثمانينيات.

وقد اعترف فرج أن الشريعة قد عرفت الجهاد على أنه جهد جماعي. ولم يكن لفرد أن يشن حرباً مقدسة التي هي قرار تتخذه الجماعة ككل. إلا أن فرج أصر أن الشريعة تطبق فقط حينما يهاجم الأمة عدو خارجي. غير أن الموقف الآن أشد خطورة بكثير، لأن الكفرة قد استولوا على مقاليد الأمور في مصر وأصبح الجهاد فريضة على كل مسلم قادر على القتال. وهكذا، تم تقليص كل الإرث الإسلامي إلى نقطة واحدة حيث أصبح السبيل الوحيد لتكون مسلماً في مصر السادات هي المشاركة في حرب مقدسة ضد النظام.

وقد أجاب فرج على أسئلة كانت تشغل أتباعه الشباب. فقد أراد أعضاء الجهاد أن يتصرفوا وفقاً للقوانين الأخلاقية قدر استطاعتهم حتى على الرغم من أنهم كانوا يخططون لعملية اغتيال. فتساءلوا، هل كان من المقبول أن يكذبوا كي يخفوا خططهم؟ وماذا عن احتمال قتل متفرجين أبرياء إلى جانب الحكام المذنبين؟ وأراد الأعضاء الشباب، نظراً لأهمية سلطة الأسرة في مصر، أن يعرفوا إن كان من الصواب أن يشتركوا في مؤامرة دون إذن والديهم؟ كما كان ثمة قلق واضح بينهم عن أولوية اغتيال السادات قبل القيام بتحرير القدس من إسرائيل وتساءلوا أي المهمتين تأتي في المقدمة. وأجاب فرج أن الجهاد من أجل القدس يجب أن يقوده مسلم ورع لا كافر. كما أنه كشف عن ثقته في حتمية تدخل الله المباشر. فالقدس ستعود تلقائياً إلى المسلمين بمجرد إقامة الدولة الإسلامية. فلقد وعد الله المسلمين بذلك «اقتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» (التوبة - ١٤). وانتهى فرج، من قراءته الحرفية للنص إلى أن الله سيتدخل ويغير قوانين الطبيعة إن أخذ المسلمون بزمام المبادرة. وسأله تابعوه عما إن كان

المقاتلون سيتلقون عوناً إعجازياً، وكانت إجابة فرج الكارثية «نعم».

وتحير المراقبون من عدم اتباع اغتيال السادات بأية عمليات. فلم يحدث انقلاب أو محاولة لإثارة انتفاضة عامة. وقد يكون سبب هذا هو ثقة الجماعة في التدخل الإلهي بعد أن خطا المسلمون الخطوة الأولى بقتلهم رئيس الجمهورية. ويبدو أن فرج قد اعتقد أن هذا أمر بديهي. فرغم أن المتآمرين كانوا يدركون أنهم يقومون بمخاطرة عظمى، رأى فرج أن الخوف من الفشل محض غباء. فواجب المسلم هو إطاعة أوامر الله، وقال إنهم غير مسئولين عن النتائج إذ إن جميع الأمور ستصبح في أيدي المسلمين بمجرد سقوط دولة الشرك.

ومثل أصوليين كثيرين، كان فرج حرفياً. فكان يقرأ النص المقدس كما لو كانت كل كلمة حقيقة واقعية بكل تفاصيلها وبالإمكان تطبيقها ببساطة ومباشرة في الحياة اليومية. وأوضح هذا مخاطر استعمال المنطق الروحاني للكتاب المنزل برنامج عمل للفعل الواقعي. وكان المثال القديم هو فصل المنطق الروحاني ومنطق الفكر الواقعي؛ وكان الفعل السياسي من اختصاص العقل. لكن هؤلاء الأصوليين السنيين، في ثورتهم ضد هيمنة العقلانية العلمانية كانوا ينبذون العقل. وكان عليهم تعلم الحقيقة المرة التي مؤداها أنه رغم أن مغتالي السادات قد أطاعوا الله حرفياً طبقاً لاعتقادهم، فإن الله لم يتدخل لإقامة الدولة الإسلامية. فقد تولى حسني مبارك بعد السادات بدون مشاكل تقريباً، وظل النظام العلماني في مكانه حتى يومنا هذا.

ويبدو أن الأفكار التي أوجزتها «الفريضة الغائبة» لم تكن مقصورة على مجموعة محدودة من المتطرفين بل كانت أوسع انتشاراً في المجتمع المصري عما اعتقده المراقبون حينذاك. فقليل من المصريين هم من أرادوا أن يقتل السادات بالفعل، وقد أصيب معظم المصريين بالصدمة لاغتياله. إلا أن رباطة جأشهم بعد موته كانت أمراً ملحوظاً يبعث على القشعريرة. فمثلاً، أدان مشايخ الأزهر الاغتيال مباشرة. لكنهم لم يظهروا أي حزن على فقدان السادات. وفي العدد الأول من مجلة الأزهر الذي صدر عقب الحادث مباشرة، لم تكن ثمة صورة للسادات، وذُكر القتل بشكل مقتضب عارض على الصفحة الثانية وكان المفتي

هو الشخص الوحيد الذى هاجم «الفريضة الغائبة» بشدة ووضوح وكتب رداً مفصلاً على «رسالة» فرج فقال إنه محظور أن يُدعى مسلم يؤدى الفرائض مرتداً. كما أن ممارسة التكفير لم تكن شائعة أبداً في ا لإسلام إذ لا يعلم ما في القلوب سوى الله. وناقش المفتى الآيات التى تدعو لقتال الكفار في سياقها التاريخى وبين أنها أنزلت استجابة لظروف خاصة في المدينة في ذلك الوقت ولا يمكن تطبيقها كما أنزلت حرفياً في مصر القرن العشرين. إلا أنه في مقال آخر في ديسمبر عام ١٩٨١ نُشر في دورية التصوف الإسلامي، وهي الدورية الرئيسية للتصوف، اعتقد المفتى أنه من البديهى أن يكون قراؤه على علم وثيق بتعاليم فرج رغم أنه كان قد نشر «الفريضة الغائبة» منذ وقت قصير ولم يكن من المحتمل أن يكون الجميع قد قرءوها بعد. ومن المحتمل أن الأفكار التى تسربت منه إلى الدوائر الإسلامية وأصبحت شائعة. فقد كانت أغلبية المصريين ينظرون إلى الاغتيال على أنه خطيئة عظمى، إلا أن الكثيرين لم يكونوا على يقين بشأن السادات. فقد كانت الأحوال قد تغيرت منذ وفاة عبد الناصر، وكان المصريون حينذاك يريدون صفات إسلامية حقة في قادتهم، وكانوا آخذين في التحول عن المنطق العقلانى العلمانى.

ووجد مبارك أن عليه أن يعترف بالجو الدينى في البلاد. فقام مباشرة بالإفراج عمن اعتقلهم السادات في هجمته في سبتمبر عام ١٩٨١. واستمر في محاولته للتحكم في الحركات الإسلامية، إلا أنه استهدف تنظيمات محدودة فقط، وسمح للإخوان المسلمين (التى لم يتم الاعتراف بها رسمياً حتى الآن) أن يشاركوا في الانتخابات وأن ينشئوا لأنفسهم وضعاً في الحكومة. وكان التحالف الإسلامي، أو التنظيم الجديد لجماعة الإخوان، قد نأى بنفسه بمهارة عن المتطرفين، وحاول تحسين العلاقات مع المسيحيين الأقباط في مصر، وأن يعمل في سلام على إنشاء دولة إسلامية. ومصر الآن دولة شديدة التدين. فالإسلام الآن في قوة الناصرية في الستينيات. ويبدو أن شعار الإخوان «الإسلام هو الحل» يلقى صدى لدى أعداد متزايدة من الناس. وتحتل الأسئلة الخاصة بالمسائل الدينية الفردية مساحات بارزة في صفحات الخطابات بالمجلات والدوريات، كما تجرى مناقشة حية للقضايا الإسلامية في وسائل الإعلام. وأصبح الزى الإسلامى سائداً. كما يتم الفصل بين

الرجال والنساء فى الفصول الدراسية بشكل منتظم وأصبحت هناك أماكن مخصصة للصلاة فى الأماكن العامة. إلا أنه مازالت هناك رغبة شائعة لعودة مصر إلى الحكم بالشريعة الإسلامية وأن يصبح الإسلام مصدر التشريع الدستورى. وفى مصر الآن تعددية حزبية وديموقراطية اسمية. إلا أن الفساد مازال منتشرياً والسلطة التنفيذية شمولية ويرفض حزب الدولة أن يكون مجرد حزب حاكم. وهناك قدر من الشكوك أنه لو أجريت انتخابات حرة فسيمنح الناس أصواتهم للقادة الأكثر تديناً. لهذا، أصبح الإسلام التحدى الرئيسى لنظام مبارك.

لقد نضج إحياء السبعينيات الإسلامى. وتبنى الكثيرون من التيار الرئيسى من مختلف الأعمار والطبقات أصولية معتدلة وليس لدى أغلبية هؤلاء اهتمام بالسياسة. إلا أنه لو أخذت ميولهم الدينية فى الاعتبار فمن السهل تعبئتهم بواسطة القادة المتأسلمين لدى حدوث أزمات سياسية واجتماعية واقتصادية. ومازال كثير من الشباب يشعرون،أن المجتمع المصرى الحديث لا يولى مصالحهم اهتماماً. ومازالت التنظيمات الأكثر تطرفاً تجتذب الطلبة المتفوقين فى كليات العلوم والهندسة وأقسام الرياضيات الذين يجدون أن أسلوب الحياة الإسلامى الصارم يمنحهم بديلاً بوسعهم أن يحيون وفقه أكثر من الخيار العلمانى، ويساعدهم أيضاً على النقلة الصعبة من الثقافة الريفية إلى ثقافة المدينة الحديثة ويمنحهم إحساساً بالأصالة والانتماء. وأيضاً فهو يتيح لهم الانتماء إلى جماعة، وهو أمر صعب المنال فى المجتمع الحديث رغم أنه يمثل حاجة ملحة. ولا يسعى هؤلاء الشباب إلى تحريك عقارب الساعة إلى الوراء، لكنهم يبحثون عن سبل جديدة لتطبيق النموذج الإرشادى الإسلامى الذى وافق المسلمين وساعدهم لقرون على التكيف مع أحوالهم الراهنة.

إن مشاعر الاستياء العميق التى انفجرت ببشاعة فى عملية اغتيال السادات مازالت تتأجج تحت السطح بعد عقدين من ليبرالية مبارك المحدودة والتطبيق الجزئى للديموقراطية. والفرق الآن هو أن الإسلاميين أكثر تنظيماً بكثير. فقد زار باتريك جافنى المستعرب الأمريكى المنيا مرة أخرى عام ١٩٩١ ولاحظ الحشود التى كانت تؤدى صلاة الجمعة فى الشارع العام خارج مسجد أصولى صغير. وكانوا أكثر

تنظيماً بكثير مما كانوا عليه في السبعينيات. فقد اختفى التحدي غير المنظم المهلهل. وكان كثير من المصلين في الثلاثينيات والأربعينيات من العمر ويرتدون زياً موحداً، أي الجلابيب البيضاء وأغطية الرأس الإسلامية الصحيحة. وأعطوا تأثيراً بأنهم يكونون ثقافة تحتية مميزة ومبلورة لها توجهها وهويتها. كما لاحظ جافني أيضاً مبنى حكومياً ضخماً يحوى مكاتب وزارة الداخلية والذى قصد به أن يرمز إلى قوة الدولة. وكرمز للتحكم فى منطقة اضطرابات سابقة، بدا المبنى وأنه لا علاقة له بالإسلاميين الملتزمين الذين كانت وجهتهم مكة لا القاهرة. فكانت ثمة مملكتان تتواجدان جنباً إلى جنب فى صدع شيزوفراني دون بادرة للشفاء.

لذا، لا يستدعي وجود حرب بين «الأمتين» الدهشة. وتظهر تقارير بين الحين والآخر عن إلقاء القبض على إسلاميين متطرفين وتبادل الشرطة إطلاق النار معهم، فعلى حين ترتضى أغلبية الإسلاميين الانفصال عن المجتمع العلماني، تلجأ أقلية صغيرة إلى الإرهاب. فقد حدثت منذ عام ١٩٨٦ هجمات ذات دوافع سياسية على أمريكيين وإسرائيليين ومصريين بارزين. ففى عام ١٩٨٧ أطلق إسلاميون النار على حسن أبو باشا وزير الداخلية الأسبق ومكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور. ثم قتلوا رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب فى أكتوبر عام ١٩٩٠، والعلماني المتشدد فرج فودة عام ١٩٩٢. وقد شهد ذلك العام أول هجمات إسلامية على السواح الأوربيين والأمريكيين. ونظراً لأن السياحة بالغة الأهمية في الاقتصاد المصرى، فقد رد مبارك بغارات واعتقالات جماعية خرقاء دون تمييز صبت مزيداً من الوقود على اللهب. وادعت جماعات حقوق الإنسان عام ١٩٩٧ أن عشرين ألفاً من المشكوك في انتمائهم إلى جماعات فدائية محتجزون دون محاكمة في السجون المصرية ـ ومرة أخرى ـ ألقى القبض عليهم لمجرد حيازاتهم لنشرات ملتهبة أو لحضورهم اجتماع ما. وفي ١٧ نوفمبر عام ١٩٩٧ قامت الجماعة الإسلامية الإرهابية بقتل ثمانية وخمسين سائحاً وأربعة مصريين في الأقصر. وأصروا على أن تلك الهجمة «لن تكون الأخيرة بل سيستمر المجاهدون في عملهم مادامت الحكومة سادرة في تعذيب وقتل أبناء الحركة الإسلامية». وتستمر الحرب. فقد استمر البؤس واليأس والعجز مصدر إلهام الأقلية الإسلامية السنية في مصر حيث قاموا بتحويل الإسلام إلى أيديولوجية تشوه الدين تشويها

كاملاً بتبريرها للاغتيال.

ومثل مصر، كانت إسرائيل أيضاً تتحول إلى دولة دينية. وكان هذا أكثر وضوحا في صعود الحريديم (الأرثوذكس) السياسي خلال الثمانينيات. فقد ظلت أقلية من اليهود الأرثوذكس المتطرفين ينظرون إلى دولة إسرائيل على أنها فاسدة جوهرياً أو أنها «تلوث يحوى كل التلوثات الأخرى وهرطقة كاملة». وكتب يرامائيل دومب في نشرة «حراس المدينة» عام ١٩٧٥ «إن الصهيونية في جوهرها إنكار لأساسيات عقيدتنا. إنها إنكار مطلق يصل إلى الأعماق والأسس والجذور». إلا أن معظم الحريديم لم يذهبوا بعيداً كهذا. بل إنهم رأوا ببساطة أن الدولة غير ذات أهمية دينية ونظروا إليها بعدم مبالاة تامة. وقد مكنهم هذا الحياد من المشاركة في السيرورة السياسية. وكان باستطاعة الحسيديين رؤية عملهم السياسي في ضوء ديني، أو كخلاص للومضات الإلهية المحبوسة في شرك المؤسسات العلمانية للدولة. ورأوا أن بإمكانهم جعل المجتمع الإسرائيلي أكثر انفتاحاً لتغير مشيحاني بأن يضغطوا من أجل تشريعات دينية مثل حظر لحم الخنزير أو التقييد الصارم بطقوس السبت. وكان المسجانديم الليتوانيون ذوى توجهات أكثر براجماتية، فقد كانوا قد تقوقعوا وتحصنوا داخل عالم اليشيفات بشكل أعمق من ذى قبل واستغلوا الدولة لدعم مؤسساتهم. وكانوا لا يهتمون على الإطلاق بمشاكل الدولة أو الدفاع أو السياسة المحلية والخارجية، بل كان معيارهم الوحيد لتفضيل حزب على الآخر هو التمويل والدعم السياسي لليشيفات.

وظل البقاء أحد أهداف الحريدي الهامة. وأصبح موقفهم من الأغيار أكثر تشدداً. وكانت محاكمة أدولف إيخمان في القدس عام ١٩٦١ قد أحيت الوعى بالهلوكوست الأمر الذى جعل الحريديم أكثر تصميماً على تجنب ثقافة الأغيار واليهود العلمانيين المشاركين فيها. ونظروا إلى أنفسهم على أنهم في حالة حرب مع المدنية الحديثة وأنهم لا علاقة لهم بالأغيار أو باليهود المتدينين الذين لا يشاركونهم آراءهم عن اليهودية ومرة أخرى أدت خبرة القمع والاضطهاد إلى تضييق الآفاق الدينية وإلى التأكيد المتجدد على التطابق الأيديولوجي. وأصبح

الحريديم بأسلوب متزايد، بغير لغة أو مفاهيم يتواصلون بها بأى طريقة ذات معنى مع العالم خارج اليشيفات أو المجالس الحسيدية. وشعروا بالاغتراب عن جيرانهم مثلما كان أجدادهم يشعرون بالاغتراب عن الأغيار فى الشتات.

إلا أن وعيهم الجديد بالهلوكوست جعل إحساسهم مفرطاً بالمخاطر التى تحيط باليهود، ولكى يحافظوا على التوراة، كانوا على استعداد لاقتحام سيرورة السياسة. وعبر عضو فى اتحاد الحريديم عام ١٩٥٠ تعبيراً بليغاً عن هذا التوجه بقوله «إننا ضعفاء، والآليات القوية فى أيدى أعدائنا، ووسط الانقسام والانفصال، فإننا نواجه عواصف تهدد بمحونا لا قدر الرب. وتجعل القوانين التى تضر بعمق كياننا موقفنا مأساوياً غير محتمل. لذا يجب أن نحترس، ونصد أية هجمات ضدنا من داخل الحكومة».

ولم تكن الظروف فى الخمسينيات طيبة. فقد انفصل حزب اتحاد إسرائيل Augdat Israel عن حكومة العمل عام ١٩٥٢ لخلاف حول قضية تجنيد النساء فى جيش الدفاع الإسرائيلى ولم يمثل الحزب فى الكنيست مرة أخرى إلى أن أصبح أوجدات عضواً فى الحكومة الائتلافية بعد انتصار الليكود عام ١٩٧٧ ومن ثم اقترب مجلس حكماء التوراة Moetzet G'dolay ha - Torah، وهو الهيئة الاستشارية لأجودات ويتكون من الحاخامات المسنين الذين كان الصهاينة قد أودعوهم مزبلة التاريخ العقلية، من مراكز السلطة. إلا أن العداء القديم بين الحريديم المسنجدين طفا على السطح مرة أخرى فى المجلس وبدءوا ينظرون إلى بعضهم البعض كمتنافسين فى سباق على نفس التمويل. وأدى هذا إلى ظهور أحزاب حريديم جديدة ولاعبين سياسيين جدد.

فمثلاً، تملك القلق من الحاخام اليعازرا شاس، رئيس يشيفا بونوفيز Ponovez وقائد اليهودية الليتوانية فى إسرائيل من تأثير اليهود السفارديم. وكان الكثيرون منهم قد انطووا تحت لواء أعضاء الحسيديم فى أوجدات. وخشى شاس من أن يزيد هذا من عدد الناخبين الحسيديم ويسحب بعض التمويل من المسنجديم ولمجابهة هذا الخطر، خطب ود السفارديم، وأنشأ حزب سفارديم جديد وهو حزب شاس لرعاة التوراة مع حاخام السفارديم الأكبر أوفاديا يوسف. ولم يكن السفارديم نفس

كراهية الأوربيين اليهود للصهيونية. فحتى إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ لم يضطهدهم العالم الإسلامي ولم يطوروا عقلية غيتو. لذا لم يترددوا في المشاركة السياسية في شئون الدولة وانقسموا بعزيمة وحيوية في الحياة السياسية. وكسب حزب شاس في انتخابات عام ١٩٨٤ أربعة مقاعد في الكنيست.

إلا أن ربي لوبافيتش السابع Seventh Lubavitcher Rebbe قرر في عام ١٩٨٨ التصدى للحاخام شاس والمسجنديم. وكان يريد أيضاً أن يجبر شاس على الضغط من أجل تعريف أكثر صرامة لليهودية. وقد أدى هذا التحرك إلى إيضاح عدم مبالاة الحريديم بخير دولة إسرائيل السياسي. فلو أن الحكومة الإسرائيلية أذعنت لرغبات الربي وأعلنت أن نسل الزواج المشترك ليس يهودياً وكذلك من يعتنق اليهودية على يد حاخام إصلاحي لأثارت عداء يهود أمريكيين كثيرين يضغطون بنجاح في الولايات المتحدة من أجل إسرائيل وهذا الدعم الأمريكي ملح وحاسم لبقاء إسرائيل. إلا أن ربي اللوبافيتش لم يكن يعنيه هذا. فقد كان يريد مجرد دفع مهمته الإصلاحية للعالم اليهودي قدماً. وقد واجه بعض مبعوثيه الصعاب مع أناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم يهود إلا أنهم لا يتطابقون مع المعايير التشريعية ولو أعلنت حكومة إسرائيل رسمياً أن هؤلاء ليسوا يهوداً لسهلت الأمور كثيراً على اللوبافيتش. إلا أن تدخل الربي زاد عضوية الحسيديم في أوجدات زيادة كبيرة، ولكي يجابه هذا، كوّن الحاخام شاس حزب مسجنديم جديد هو لواء التوراة .Degel ha-torah

وسبب دهشة جمهور الإسرائيليين فوز الأحزاب الدينية بعدد قياسي من المقاعد، أي ثمانية عشر مقعداً، في إنتخابات ١٩٨٨. وكنتيجة لهذا وجدوا أن بأيديهم ميزان القوى بين العمل والليكود. وأجبر الساسيون العلمانيون الذين كانوا قد احتقروا الأرثوذكس ونظروا إليهم على أنهم مفارقة تاريخية ميئوس منها، على الإتيان إليهم وقبعاتهم في أيديهم، ليطلبوا إليهم أن يلحقوا بمعسكرهم لتشكيل الحكومة. وكان الحريديم مازالوا معارضين لدولة إسرائيل كما كانوا من قبل إذ اعتقدوا أن العلمانيين من اليهود مصممون على تحطيم الدين، ونظروا إلى عملهم السياسي كشر ضروري، أو فعل دفاع عن النفس. وكتب

الحاخام ناثان جروسمان عام ١٩٩١ فى صحيفة ياتدنيما اللتوانية عن العمل السياسى أنه «يمكن تعريفه على أنه تسلل إلى معسكر الأعداء». إلا أن الحريديم حصلوا بشكل شبه قسرى على سلطة غير مسبوقة فى الدولة التى شعروا أنهم فى حرب معها. فقد ظل الحريديم منذ الهلوكوست يحاولون إعادة خلق اليهودية الأوربية، ونظروا للحياة اليهودية القديمة فى أوربا الشرقية على أنها العصر الذهبى وكانوا يسعون إلى الإلهام من حاخامات الماضى العظام. إلا أنهم بحلول الثمانينيات كانوا قد تفوقوا عليهم. فلم يكن ليهودى متدين منذ تحطيم المعبد عام ٧٠ ق. م سطوة تماثل سطوة الحاخام شاس، الذى صار له، بحلول عام ١٩٨٨ قيادة حزبين سياسيين كبار، وصار السياسيون يخطبون وده من أجل صوته الحاسم فى الانتخابات.

واتضح هذا بشكل درامى فى ٢٦ مارس عام ١٩٩٠. فالمعبد الرمزى لثقافة إسرائيل العلمانية هو ستاد كرة السلة الإسرائيلى ياد إلياهو Yad Eliahu. وتقترب كرة السلة فى إسرائيل من كونها ديناً قومياً إذ تمثل هذه الرياضة الحلم الصهيونى باليهودى الجديد الذى لم يعد ينحنى وهو شاحب على أجزاء التلمود فى يشيفا رطبة، ولا يلتحف أردية الأرثوذكسية السوداء، لكنه خلع عنه أرديته من أجل حسن الأداء، ويبدو رقد لوحته الشمس، صحيح الجسد، ذا قدرة على التنافس الدولى مع الأغيار وهزيمتهم فى ألعابهم الخاصة. إلا أنه فى مساء ٢٦ مارس عام ١٩٩٠ لم يزدحم الملعب بمشجعى فريق المكابيين (الفريق القومى) المتحمسين، بل بعشرة آلاف من الحريديم الملتحين الذين يرتدون الأردية التقليدية الواسعة. فقد اقتحم الأرثوذكس المتطرفون قلب إسرائيل العلمانية واستولوا ـ لمدة ساعة على الأقل ـ على إحدى قلاعها الرئيسية. وعلاوة على هذا، فقد بث الإرسال التليفزيونى الحادث، وشهده الإسرائيليون المتدينون والعلمانيون معاً فى أنحاء البلاد وقد حُبست أنفاسهم. والمناسبة؟ فقد كان الحاخام شاس على وشك الحديث مع أتباعه لإلقاء تعليماته إليهم بشأن كيفية التصويت فى الانتخابات القادمة. واستيقظت الأمة على حقيقة أن ميزان القوة يملكه حاخام مسن يرتدى قبعة عالية سوداء، وله عقصتان على جانبى وجهه، ويتحدث خليطاً غريباً من اللغة اليديشية Yiddish والعبرية والآرامية بحيث لم يفهمه مستمعوه العلمانيون. وكان الحاخام

في ذلك المساء يقرر مصير العمل والليكود.

كانت مسيرة السلام بين إسرائيل والفلسطينيين تسير سيراً أليماً متعثراً، إلا أنها تسببت في انقسام الحكومة الائتلافية الوطنية. وبدأ كل من العمل والليكود في السعي وراء تحالفات مع أحزاب أصغر التي كانت الدينية منها تكون أكبر كتلة متفردة. وكان العمل قد عقد اتفاقات غير رسمية مع أوجدات وشاس، لكن الحاخام يوسف، أحد قادة شاس، خشى أن يؤدى التحالف مع العمل إلى انقسام الحزب. ويميل السفارديم لأن يكونوا قوميين متطرفين، ويبغضون العرب. وكانوا متشددين في تصميمهم على عدم الإتيان بأية تنازلات عن الأرض مثل التي يتصورها العمل. ثم أتى الحاخام شاس، زميله المؤسس للحزب وتطوع أن يتحدث إلى أتباعه في حزب شاس وحزب لواء التوراة وينصحهم بشأن موقفهم من محادثات الائتلاف الوشيكة.

ولم يكن حديث الحاخام الذى استغرق مجرد عشر دقائق مربكاً ومحيراً فقط، لكنه بعث القلق في نفوس من شاهدوه من الإسرائيليين على شاشات تليفزيوناتهم. فلم يذكر محادثات الائتلاف مباشرة، كما أنه لم يتعرض لأى من القضايا التي كانت تسيطر على تفكير بقية الأمة. فقد كان من الواضح أنه لا يبالى بقضايا مثل حقوق الفلسطينيين والدفاع القومي وجدوى مبادلة الأرض بالسلام. ولم يكن لديه كلمة طيبة واحدة يقولها في حق دولة إسرائيل. وبدلاً من أن ينظر إلى دولة إسرائيل كمخلّص، أشار إلى الزمن «الرهيب والبشع» الذى يعيشه الحريديم الآن. ولم تكن الحرب التي قلق بشأنها الحاخام هي الحروب الإسرائيلية العربية بل المعركة الطويلة التي ظل الصهاينة يشنونها ضد الدين. فقال بانفعال شديد «إن الحروب التي نخوضها ضد من يعارضون الموروث لم تبدأ اليوم؛ فقد بدأت بالفعل في زمن الحرب العالمية الأولى، ويعلم سيد العالم وحده ماذا نتوقع». إلا أنه لم يساوره شك في النتائج حيث أكد أنه «لا يمكن تدمير اليهودى. فقد يحدث ويُقتل. إلا أن الأطفال سيظلون يتمسكون بالتوراة».

وكان وضع العمل في موضع الأعداء أمرا سيئا بدرجة كافية، إلا أنه، ولاستيائهم. فقد كان عليهم أن يستمعوا إلى إدانة مؤسساتهم المقدسة لا بصفتهم

غير يهود بل لأنهم أعداء لليهودية. فتساءل الحاخام ساخراً «هل العمل شيء مقدس؟ ألم يفصلوا أنفسهم عن الماضي ويبحثوا عن توراة جديدة؟» إن هؤلاء الكيبوتزيين ليسوا بأفضل من الأغيار، فإنهم «لا يعلمون ما هو السبت أو ما هو يوم كيبور. فكيف يمكن أن يوكل لهؤلاء أمر تقدير الأمور الحاسمة والجوهرية التي تواجه الشعب اليهودي؟» فلا يجوز أن يكون ثمة اتفاق مع العمل، «فإنهم لا يهتمون بتقوية التدين حين يكونون في الكنيست، بل يحاولون تمرير قوانين تدمر الدين اليهودي».

ولا تقتصر أهمية ذلك المساء في ملعب ياد إلياهو على مجرد حقيقة أن الحاخام شاس بدا وقد حول ميزان القوة إلى صالح الليكود وحده وبدون مساعدة، ومن غير مجهود؛ لكن ذلك المساء كان أيضاً علامة على الرحلة غير العادية للحريديم إلى قلب السلطة بعد أن كانوا مجموعة خارجية محتقرة. كما برهنت تلك المناسبة أيضاً على وجود «أمتين» في إسرائيل غير مستطيعتين أن تفهم إحداهما «لغة» الأخرى، ولا تتشاركان في أية اهتمامات. وكشف أيضاً عن مشاعر الكراهية العميقة التي هي مصدر إلهام تدين الكثير من الحريديم، والحنق الموجه، ليس فقط نحو الأغيار، بل أيضاً ضد قرنائهم من اليهود.

وكان الأعضاء الصهاينة المتدينون في جوش أمونيم على استعداد للقتال أيضاً. فقد كانوا متمردين أخذوا في تصعيد ما اعتقدوا أنه ثورة على القومية العلمانية من جهة، والأرثوذكسية من جهة أخرى. فقد كانت الحياة بالنسبة لليهود قد تغيرت تغيراً عنيفاً. فقد شعروا أنه ليس ثمة حاجة أن تقيدهم تقاليد الشتات اليهودي لأن العصر المشيحاني قد بدأ. وكان هذا هو الإنجاز العظيم للمشيحانية اليهودية منذ الشيتباي زفي. وقد شعر اليهود في هذا الوقت أيضاً أنهم يمرون بفترة انتقال وأنهم على وشك أن يخبروا تغيراً غير مسبوق. لكن الجوش شعروا بالتقييد المكاني رغم أن باقي اليهود تمردوا على قيود الغيتو. فقد كان هاجس الحدود يسيطر عليهم كما سيطر على الشاباتيين، ورغم أنهم ركزوا على حدود أرض إسرائيل تركيزاً أساسياً فقد كانوا أيضاً يخوضون معارك من أجل تعريف حدود اليهودية. فسعوا إلى تقويض الحواجز بين اليهود العلمانيين والمتدينين.

واقتنع أتباع كوك أنه، على الرغم مما يعتقده الحريديم فباستطاعة الفرد أن يكون أرثوذكسيا كاملاً وأيضاً صهيونياً. كما أنهم بعكس العلمانيين كانوا مصممين على أن الصهيونية لن تكتمل بغير البعد الديني. إلا أن تلك السنوات كانت صعبة. فقد شعر أتباع كوك أن حكومة الليكود قد تخلت عنهم، فقد طردتهم من ياميت. كما أن الحكومة قد أعاقت سيرورة الخلاص بعقدها اتفاق مع العرب. وبدا هذا أوضح ما يكون لدى اشتعال الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧ التى أجبرت حكومة العمل على توقيع اتفاق سلام رأى فيه أتباع كوك أنه غير مقبول بشكل أكبر من كامب دافيد لتضمنه وعداً بالتنازل عن أجزاء من أرض الضفة الغربية المقدسة. وكيهود الشتات، تملك أتباع كوك شعور بأنهم محاصرون بعالم معاد من الأغيار، وأيضاً بقرنائهم من اليهود الذين كانوا يعوقونهم عن إنجاز ما شعروا أنهم باستطاعتهم تنفيذه.

وكنتيجة لهذا، انقلب فرح الجوش الروحانى بالأرض إلى نشوة حنق كانت تنفجر فى المناسبات على شكل عنف مرعب ضد العرب فى المقام الأول. فقد كان المستوطنون، فى الأيام الأولى الواعدة لحركتهم، يقولون إنهم قد أتوا «لمساعدة» الفلسطينيين فى الأرض المحتلة ولكسر حائط «الكراهية» بين الشعبين، رغم أن التعبيرات التى غُلّف بها هذا العرض كشفت عن عدوان حاقد إذ قال لڤينجر فى السبعينيات «لقد أتينا لنطهركم من هواء القتل الذى تعودتم عليه». وبشكل متزايد، أصبح سلوكه مستفزاً. فقد اعتاد أن يسير بعدوانية حاملاً بندقيته فى يده فى المدن العربية بالضفة الغربية. وكان يقود النشطاء فى حملات ثارية وهجمات حربية لدى حدوث هجمات للفلسطينيين على إحدى المستوطنات. وكانوا يحطمون زجاج السيارات ويحرقون المتاجر. وبعد اشتعال الانتفاضة قال إنه كلما كان يقترب من الخليل «تستيقظ داخلى أرواح حانقة لا تمنحنى السلام» وفى عام ١٩٨٨، حينما قذف الفلسطينيون سيارته بالحجارة قفز لڤينجر من السيارة وفتح النيران على مهاجميه وقتل خالد صلاح الذى كان يقف بالقرب من متجره للأحذية ولم يشارك فى قذف الحجارة. وفيما بعد، تملك منه سعار القتل، فمضى يطلق النيران جزافاً، ويقلب عربات الخضروات ويهيل السباب بأعلى صوته. وقال أثناء محاكمته أنه رغم عدم قتله أحد فإنه يتمنى لو كان له «شرف قتل عربى».

واختلفت نظريات الجوش عما يجب فعله إزاء العرب في «أرض إسرائيل». واتفق الجميع على أنه لا حق للفلسطينيين في الأرض ولا مكان لهم هناك. وكانت شريعة الكراهية والإقصاء هذه، بالطبع، تشويهاً للعقيدة اليهودية. فقد أصر أنبياء بني إسرائيل، والتوراة، وحكماء التلمود الربانيون على الواجبات القصوى للعدالة والتعاطف الرحيم، حتى لو لم ينتم «الغريب» لمجموعتهم الإثنية وكان فقط يعيش معهم في أرضهم. وقد لخص الحاخام هيلل المعاصر للمسيح تعليمات اليهودية في القاعدة الذهبية «افعل تجاه الآخرين ما تود أن يفعلونه تجاهك» إلا أن أتباع كوك، ومن منطلق الانتقائية الأصولية، ركزوا على الأجزاء الأكثر عدواناً في كتابهم المقدس، تلك التي أمر بها الرب بني إسرائيل بطرد السكان الأصليين لأرض الميعاد، وعدم عقد معاهدات معهم، وتدمير رموزهم المقدسة، وإبادتهم. كما أنهم فسروا عقيدة أن اليهود هم شعب الله المختار على أنها تعني عدم خضوعهم للقوانين التي تسري على الأمم الأخرى لأنهم متفردون، ومقدسون، وذوو وضع خاص. ويجادل شلومو آفينر بأن تعليمات الرب بشأن غزو الأرض أهم من «الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية والحقوق القومية للأغيار في أرضنا».

واقترح معظم أتباع كوك أن يسمح للعرب بالبقاء في «أرض إسرائيل» فقط «كمقيمين أجانب» يعاملون معاملة حسنة طالما احترموا دولة إسرائيل. إلا أنه لا يمكن لهم أبداً أن يصبحوا مواطنين أو يمنحوا حقوقاً سياسية. وقد أنكر آخرون على الفلسطينيين حتى هذا القدر من الاعتبار ومارسوا الضغوط عليهم للهجرة، واقترحت أقلية منهم الإبادة. واستشهدوا بالسابقة التي وردت في الكتاب المقدس عن العماليق Amalekites الذين كانوا قوماً عتاة أمر الله بني إسرائيل أن يذبحوهم دون رحمة. وفي عام ١٩٨٠ نشر الحاخام إسرائيل هس مقالاً بعنوان «الإبادة: أمر توراتي» في مجلة جامعة بار-إيلان الرسمية. ويجادل قائلاً إن الفلسطينيين بالنسبة لليهود كالظلام بالنسبة للنور وأنهم يستحقون نفس مصير العماليق. وفي نفس العام، كتب حاييم تزوريا أحد المستوطنين يقول إن «المقت طبيعي وصحي. ففي كل جيل نجد أن هناك من ينهضون لإبادتنا، لذا فلكل جيل عماليقه الحاضرون به. وعماليق جيلنا تعبر عن نفسها في كراهية العرب العميقة المتطرفة لنهضتنا القومية التي حققناها في أرض أجدادنا».

وفى ٣ مايو قُتل ستة من طلبة أحد اليشيفات فى الخليل. وألهم هذا بعض أتباع كوك المتطرفين بالانتقام. فقام مناحم ليفنى، وهو مستوطن فى كريات أربا، ويهودا إتزيون، وهو عسكرى من المستوطنين الجوش بزرع قنابل فى سيارات خمسة من رؤساء البلديات العرب لا تهدف إلى قتلهم بل إلى تشويههم حتى يحيون عبرة للباقين بعواقب الإرهاب ضد اليهود. وحينما سمع الأنباء، هلل الحاخام حاييم دروكمان قائلاً: «هكذا، فليفنى جميع أعداء إسرائيل». إلا أن أغلبية الإسرائيليين ساءتهم تلك الهجمة التى نتج عنها تشويه اثنين فقط من المستهدفين، وزاد استياؤهم حينما علموا أن هذا العمل كان فقط فعلاً جانبياً بالنسبة لليفنى وإتزيون. ففى أبريل عام ١٩٨٤ «كشفت الحكومة عن وجود جماعة سرية فى إسرائيل خططت لنسف قبة الصخرة ثالث أقدس مكان فى العالم الإسلامى.

استولى جيش الدفاع الإسرائيلى من الأردن أثناء حرب ١٩٦٧ على القدس الشرقية والمدينة القديمة. ثم قامت إسرائيل بعد أيام قليلة من الحرب بضم تلك الأماكن متحدية بذلك الجماعة الدولية، وأعلنت القدس عاصمة أبدية لها. وكان هذا القرار خلافياً. ففى عام ١٩٤٧ كانت الأمم المتحدة قد أعلنت أن على القدس أن تصبح منطقة دولية. إلا أنها فى أعقاب حرب ١٩٦٧ طلبت من إسرائيل الانسحاب من جميع الأراضى التى احتلتها بما فيها القدس. فقد ظلت القدس مدينة إسلامية منذ عام ٦٣٨م، باستثناء فترة حكم الصليبيين القصيرة (١٠٩٩ - ١١٨٧). والقدس ثالث أقدس مدينة فى العالم الإسلامى بعد مكة والمدينة وكانت قبة الصخرة التى شيدت عام ٦٩١م ميلادية أول صرح إسلامى يتم إنشاؤه. واعتقد - فيما بعد - أن القبة تحدد المكان الذى قدم فيه إبراهيم ابنه أضحية لله. كما بدأ الرسول معراجه الروحانى إلى السماء من تلك الصخرة. وكان هذا المكان مقدساً أيضاً بالنسبة لليهود، إذ اعتقدوا أن الصخرة تقع على جبل الهيكل الذى يُقال إنه الموقع الذى بنى عليه سليمان معبده.

إلا أنه ولعدة قرون لم يحدث توتر بين المسلمين واليهود فى القدس؛ فقد اعتقد اليهود دوماً أن معبدهم الذى هدمه الرومان عام ٧٠ ق. م لن يعيد تشييده سوى المخلِّص، لذا لم تكن لديهم خطط بشأن المنطقة التى يسميها المسلمون «الحرم

المخلِّص، لذا لم تكن لديهم خطط بشأن المنطقة التي يسميها المسلمون «الحرم الشريف». ثم أصبح الحائط الغربي الذي تقع الصخرة أسفله مباشرة أكثر الأماكن قداسة في العالم بالنسبة لليهود منذ القرن السادس عشر. وكان الحائط آخر بقايا المعبد الذي بناه الملك هيرود في القرن الأول قبل الميلاد. ثم سمح السلطان العثماني سليمان الفاتح (١٤٩٤-١٥٦٦) لليهود بجعل هذا الحائط حرماً رسمياً لهم. ويقال إن سنان، معماري بلاط سليمان الفاتح، هو الذي صمم هذا الضريح البسيط لليهود هناك.

ثم أنهى الصراع العربي الإسرائيلي تلك الفترة من التوافق بين المسلمين واليهود في المدينة المقدسة، ومنذ عشرينيات القرن العشرين، شهدت هذه البقعة المقدسة عنفاً عظيماً. وخلال فترة ضم الأردن القدس الشرقية والمدينة القديمة لها بين عام ١٩٤٨ و١٩٦٧، منع اليهود من زيارة الحائط الغربي كما هدمت بعض المعابد القديمة في الحي اليهودي من المدينة القديمة. وكانت عودة اليهود إلى الحائط الغربي عام ١٩٦٧ أكثر اللحظات المفعمة بالعاطفة في حرب الأيام الستة، وخبرها اليهود، حتى العلمانيين منهم، حادثاً روحانياً عميقاً.

وحينما ضم الإسرائيليون القدس بعد الحرب وعدوا بإتاحة الأماكن المقدسة للمسيحيين والمسلمين بغير أية قيود. واستمر الحرم الشريف تحت سلطة المسلمين وكانت هذه السياسة محل مقت عميق من القوميين الإسرائيليين المتطرفين وأيضاً الصهاينة المتدينين المتطرفين الذين ادعوا بوجوب إعادة الحرم إلى اليهود. إلا أن الموقف الرسمي اليهودي استمر كما هو إذ إنه لا يمكن إعادة تشييد المعبد إلا بعد أن يأتي الخلاص على يد المسيح. وكان هذا حظراً أصبح على مر القرون في قوة التابو.

ثم بدأ هذا في التغير بنهاية الثمانينيات. فلم يكن ليفني وإتزيون اليهوديين المتطرفين الوحيدين اللذين حلما بإعادة تشييد المعبد كمقدمة للخلاص. فكيف للمخلِّص أن يعود والموقع مدنَّس بقبة الصخرة؟ ومثل الأصوليين الآخرين، اعتقدوا أن عليهم القيام بالمبادرة، وإلقاء الحذر جانباً وإزالة الضريح الإسلامي من على جبل الهيكل كي يمهدوا الطريق للمخلص. فلو أنهم أخذوا الخطوة الأولى، فلا شك وأن

الرب سيتدخل. ويجازى هذا الفعل الإيمانى بأن يتدخل فى التاريخ ويرسل المخلص الذى طال انتظاره إلى شعب إسرائيل. واعتقد ليفنى وإتزيون وزملاؤهما المتآمرون أن الحكومة الإسرائيلية قد ارتكبت خطيئة عظمى بسماحها بسيطرة العرب على الحرم الشريف أو جبل المعبد الذى فيه الصخرة والتى كانت فى نظرهم «شيئاً مقيتاً» و«السبب الجذرى فى جميع الأخطاء الروحانية لجيلنا».

وكان أحد المؤرخين للجماعة اليهودية السرية هو يوشابن شوشان، وهو من القبالاة (المتصوفين اليهود) رقيق خفيض الصوت اعتقد أن قبة الصخرة هى مأوى قوى الشر «للجانب الآخر» التى تحول دون الخلاص. وكان هو الذى عرض على ليفنى فكرة التطهر من هذا «المقت» أثناء مفاوضات كامب دافيد، والتى رأى أن تلك القوى الشيطانية هى التى أوحت بها. واعتقد أنه بالاستطاعة تحييد تلك القوى الشيطانية بهدم القبة وبذا تتوقف فجأة عملية السلام الملعونة. وعلى الأقل، فسيصدم هذا الفعل الدرامى الشعب اليهودى فى جميع أنحاء العالم ويمدهم بالإدراك الصحيح لمسئولياتهم الدينية، ويجعلهم ينبذون الأحاديث عن التصالح مع الأعداء.

وكانت لحظة مشبوبة بالمخاطر. فلم يكن للقصف فقط أن ينهى مسيرة التسوية بل من المؤكد أنه كان سينتهى بحرب، يشترك فيها لأول مرة كل العالم الإسلامى ضد إسرائيل. كما وافق الاستراتيجيون فى واشنطن أنه فى سياق الحرب الباردة حيث كان السوفييت يساندون العرب والولايات المتحدة إسرائيل، فقد كان هدم القبة لابد وأن يشعل الحرب العالمية الثالثة. إلا أن شبح الكارثة النووية لم يقلق الطرفين من أتباع كوك. فقد كانوا يؤمنون أنهم ببدئهم عملاً (أبوكالياً) يطبق ما جاء فى سفر الرؤيا على الأرض، سيدفعون بالقوات السماوية إلى أن تنشط «ويجبرون» الرب على التدخل فى جانبهم، وعلى إرسال المخلص لينقذ إسرائيل.

وكان هذا تفكيراً قبلانياً أصابه الجنون. وأيضاً، فهو مثال مرعب عن التوجه الأصولى لتوظيف الأسطورة أجندة لبرنامج عمل. فعلى المستوى العملى، لم يكن ثمة ما هو غير عقلانى فى مخطط المتآمرين. فقد كان ليفنى قد دُرّب كخبير مفرقعات فى جيش الدفاع الإسرائيلى. وكان قد قام بدراسة الحرم الشريف بدقة

لمدة عامين، وسرق كميات من المفرقعات من معسكرات الجيش في مرتفعات الجولان ثم قام بتصنيع ثماني وعشرين قنبلة بالغة الدقة معدة قياسياً بحيث تدمر القبة دون أن تصيب المباني حولها. وكان المتآمرون معدين تماماً لتنفيذ الهجمة. إلا أنه ما حال بينهم وبين التنفيذ هو عدم عثورهم على حاخام ليبارك خطتهم.

ومثلت مؤامرة قبة الصخرة التخلي عن العقل والاعتماد على المعجزات. وأيضاً مثلت العدمية التي كان من الممكن أن تؤدى إلى تدمير دولة إسرائيل بكاملها. وقد بينت تلك المشيحانية الكارثية الرغبة في الموت التي ظلت لوقت طويل جزءاً من التجربة الحديثة. وكانت أيضاً تدميراً للذات لأنها أضرت بمصداقية الجوش أمونيم (جماعة من المتطرفين اليهود نشطت في إقامة المستوطنات) والتي لم تستعد أبداً الإعجاب الذى كانت قد حازته في بعض قطاعات المجتمع الإسرائيلي أثناء عصرها الذهبي.

وتميزت أيضاً الحركة التي أسسها الحاخام مائير كاهانا بالعدمية الأخلاقية وكان كاهانا قد انتخب عضواً في الكنيست عام ١٩٨٤ وفاز بأغلبية ١,٢٪ من الأصوات مما تسبب في استياء أغلبية الإسرائيليين. وكان قد بدأ عمله في نيويورك بتنظيمه رابطة الدفاع اليهودية للانتقام من هجمات الشباب السود على اليهود. ثم وصل إلى إسرائيل عام ١٩٧٤ وانتهى به الأمر إلى الاستيطان في كريات أربا حيث غير اسم منظمته إلى كاش (هكذا) وكان هدفه هو مطاردة العرب لإجبارهم على مغادرة «أرض إسرائيل». وكانت أصولية كاهانا هي تقريباً النموذج الأصلي لكل الأصوليات ويهوديته اختزالية وانتقائية بشكل لا هوادة فيه لدرجة أنها أصبحت كاريكاتيراً قاتلاً للعقيدة. فأوضح كاهانا لأحد محاوريه أنه «لا توجد رسائل عديدة لليهودية، فهناك رسالة واحدة فقط وهي أن تفعل ما أراده الرب، والرسالة المقصودة هنا ببساطة هي أن «الرب أرادنا أن نأتي إلى هذه البلدة وأن ننشيء دولة يهودية». واتخذ المبدأ اليهودى عن القداسة "Kodesh" أى العزلة، والذى كان يحتفي بتمييز الأشياء عن طريق الطقوس، عند كاهانا معنى سياسياً فريداً وهو أن «الرب يريد لنا أن نحيا في هذه البلدة وحدنا، منعزلين، كي لا يكون لنا سوى القدر الضئيل من الاتصال بما هو أجنبي». وكان هذا يعني أن على العرب

أن يذهبوا. ورأى أن وعد الرب لإبراهيم يصلح الآن كما كان صالحاً في عصر النبوة، والنتيجة هي أن العرب مغتصبون. وبهذا، أصبح المنطق الأسطوري لسفر التكوين برنامجاً سياسياً للتطهر العرقي، وأدت هذه الرؤية الاختزالية منطقياً إلى رؤية مشيحانية تمثل رعباً خالصاً، فقد وقف اليهود على «حافة الخلاص» بعد حرب الأيام الستة. وكانت مهمتهم واضحة بسبب التوجه الأوحد لليهودية. فكان عليهم أن يحتلوا تلك المناطق ويطردوا العرب «ويمحوا مقت الأغيار (قبة الصخرة) ذلك من على جبل الهيكل». فلو أنهم فعلوا هذا لأتاهم الخلاص بهيجاً بدون مشقة. وبسبب فشل إسرائيل في فعل هذا، فرغم أن المخلص سيأتي، إلا أن هذا لن يحدث سوى بعد كارثة هائلة مضادة للسامية، أسوأ كثيراً من كارثة الهلوكوست، والتي ستجبر اليهود في النهاية على طاعة أمر الله الوحيد بالاستيطان في «إسرائيل» كلها.

وهذه الرؤية القاتمة للتدمير والموت رؤية عدمية بشكل عميق. وتبين رواية كاهانا المشوهة عن العقيدة آثار الاضطهاد الطويل والقمع التي باستطاعتها، لو سمح لها، الدخول في أعماق الروح وتشويهها. وتبصر شريعة كاهانا الأعداء في كل مكان، أعداء هم في النهاية متماثلون سواء كانوا مسيحيين أم نازيين أم سوداً أم روساً أو عرباً. فإن كل شيء ينظر إليه من منظور المعاناة اليهودية والانتقام لتلك المعاناة. فلم تكن دولة إسرائيل نعمة الرب لليهود بل انتقامه من الأغيار يقول كاهانا:

«لم يخلق الرب دولة إسرائيل لليهودي أو مكافأة له على عدالته وأعماله الحسنة (لكنه أوجدها) لأنه سبحانه قرر أنه لم يعد بوسعه أن يتحمل تدنيس اسمه والسخرية من الشعب الذي سمي باسمه واضطهاده وخزيانه. وهكذا أمر أن توجد دولة إسرائيل التي هي نقض كلي للشتات».

وكان اسم الرب يدنس «في كل مرة يضرب فيها يهودي أو يغتصبه الأغيار». «فالرب يشعر بالخزي حينما يُذل اليهودي. والهجوم على أي يهودي هو هجوم على اسم الرب». وكان العكس أيضاً صحيحاً. فالانتقام العنيف هو Kidush ha-shem أو تقديس لاسم الرب. «فالقبضة اليهودية المسددة إلى وجه عالم الأغيار

المندهش، والتي لم ير تلك القبضة منذ ألفي عام، هو أيضاً تقديس لاسم الرب».

وقد ألهمت هذه الأيديولوجية باروخ جولد شتاين، أحد أتباع كاهانا، بأن يطلق النار على تسعة وعشرين مصلياً في كهف الأنبياء (الحرم الإبراهيمي) بالخليل يوم عيد البوريم (النصيب) اليهودي. وقال إنه فعل هذا انتقاماً لتسعة وخمسين يهودياً قتلهم الفلسطينيون في الخليل يوم ٢٤ أغسطس عام ١٩٢٤. وقد أدت هذه الفعلة إلى تصاعد عمليات الإرهاب للجماعات الإسلامية في الأراضي المحتلة وفي إسرائيل نفسها.

فلم يكن ثمة إحياء ديني بين الفلسطينيين مثل الذى انتشر في بقية أنحاء العالم الإسلامي. وكانت استجابتهم للهزيمة العربية سياسية وعلمانية وقومية. فقام ياسر عرفات بإعادة تنظيم منظمة التحرير وأطلق سلسلة من العمليات الفدائية والإرهاب والديبلوماسية لإيجاد حل للقضية الفلسطينية. لكن بعد قمع إيريل شارون لأعضاء المنظمة في غزة عام ١٩٧١، كون الشيخ أحمد ياسين حركة إسلامية سماها «المجمع»، والتي بدأت برنامجاً اجتماعياً يماثل برنامج جماعة الإخوان المسلمين. وأنشأ «المجمع» إمبراطورية خيرية في القطاع تتكون من مستوصفات ومراكز لإعادة تأهيل المدمنين ونوادى للشباب واستعدادات رياضية وفصول لتحفيظ القرآن تدعمها الزكاة ودول الخليج الغنية وإسرائيل التى كانت تأمل في تقويض منظمة التحرير بدعمها للمجمع إذ إن ياسين عند تلك المرحلة لم يكن يهتم بالكفاح المسلح ضد إسرائيل. فقد كان مصلحاً يريد أن يدخل ثمار التحديث على اللاجئين في غزة من خلفية إسلامية. وكان أيضاً يصارع القوميين على أرواح الفلسطينيين! فقد رأى أن الهوية الثقافية للفلسطينيين يجب أن تكون إسلامية لا علمانية. وبرهنت شعبية المجمع على اتفاق كثير من الفلسطينيين على هذا الرأى. فقد كانوا يفخرون بعرفات؛ إلا أن منطقه العلماني لم يرق سوى للنخبة ذات التعليم الغربي الحديث.

واختلفت أيديولوجية جماعة الجهاد الإسلامي، التي هي شبكة فدائية، تماماً عن المجمع، وتماثلت مع تنظيم الجهاد في مصر. فقد طبقت الجماعة أيديولوجية سيد قطب على المأساة الفلسطينية التي فسروها من وجهة نظر إسلامية فاعتقدوا

أن المجتمع الفلسطيني، في الوقت الراهن، مجتمع جاهلي. ونظر أعضاء الجماعة لأنفسهم على أنهم طلائع تقاتل «ضد قوى الصلف، والعدو الإمبريالي في جميع أنحاء العالم» كما أوضح مؤدلجهم الشيخ عودة. فقد كانوا يقودون معركة من أجل الأمة جمعاء. وخلافاً للمجمع، فقد كانت الجهاد مهتمة بالمعركة المسلحة ضد إسرائيل وكانت أهدافها دينية. فمثلاً، قام نشطاؤها في أكتوبر عام ١٩٨٥ بإلقاء القنابل اليدوية على مجموعة من المدنيين والجنود أثناء احتفال بالمجندين الجدد عند الحائط الغربي قتل فيه أحد آباء المتطوعين الجدد. وكانت المنظمة في الوقت الذى حدث فيه هذا، قد انتشرت في غزة وأنحاء الضفة الغربية.

ثم انبثقت الانتفاضة الفلسطينية في ٩ ديسمبر عام ١٩٨٧ ومن غزة انتشرت لتشمل القدس والضفة الغربية، وكان جيل كامل من الفلسطينيين قد نشأ منذ عام ١٩٦٧ في تلك الأراضي في ظل الاحتلال الإسرائيلي. وكان صبرهم قد نفد من المنظمة التي لم تستطع الحصول على استقلال لفلسطين، وأحبطهم الإذلال اليومي والمعاناة التي يلقونها في ظل قوة أجنبية قامعة غاشمة. وكان الإسرائيليون قد أملوا أن يستسلم العرب لحكمهم، إلا أن الاستياء من إسرائيل كان قد وصل إلى درجة الغليان عام ١٩٨٧ وأصبحت الرغبة في قيام دولة فلسطينية رغبة عارمة. وركزت القيادات الشابة لتلك الثورة الجديدة على تقويض الاستعمار وشجعوا كل فرد فلسطيني على المشاركة. وهكذا كانت النساء والأطفال يقذفون الجنود الإسرائيليين بالحجارة ويتحدون بنادقهم وقوتهم الأعظم. وحازت الانتفاضة على إعجاب العالم العربي والمجتمع الدولي. كما أنها أمدت حركة السلام الإسرائيلي بدفعة قوية لأنها برهنت على تصميم الفلسطينيين على الحصول على استقلالهم وتحررهم من السيطرة الإسرائيلية بأى ثمن. وقد أثرت الانتفاضة في بعض المتشددين نسبياً من أمثال إيتزاك رابين الذى تحقق كجندى من استحالة استخدام جيش الدفاع الإسرائيلي كي يسحق النساء والأطفال ويجبرهم على الاستسلام. وحينما أصبح رابين رئيساً للوزراء عام ١٩٩٢ كان مستعداً للدخول في مفاوضات مع منظمة التحرير. وفي العام التالي وقعت إسرائيل والمنظمة اتفاقات أوسلو.

إلا أنه في الأيام الأولى للانتفاضة تكونت منظمة جديدة أضفت على الكفاح

الفلسطيني بعداً دينياً عدمياً مقلقاً. وكان قائد الانتفاضة علمانياً؛ إلا أن بعض أعضاء «المجمع» قاموا بتكوين منظمة حماس «حركة المقاومة الإسلامية» التي قاتلت ضد كل من الاحتلال الإسرائيلي والحركة القومية الفلسطينية. فكانوا يقاتلون العلمانيين من أجل الروح الإسلامية لفلسطين. والتحقت حشود الشباب بحماس. وكان كثيرون من هؤلاء من معسكرات اللاجئين؛ إلا أن بعضهم كانوا موظفين أو أعضاء في الطبقة الوسطى. وكانت حماس حركة عنيفة، ولدّها القمع. وتصاعدت عمليات حماس بعد قتل سبعة عشر مصلياً فلسطينياً في الحرم القدسي في ٨ أكتوبر عام ١٩٩٠. وبدافع الخوف من الإبادة، هاجمت حماس أيضاً الفلسطينيين المتهمين بالتعاون مع إسرائيل. وعن هذا قال أحد متحدثيها «إن أعداءنا يحاولون بكل ما لديهم من قوة محو أمتنا، لذا فأى تعاون مع إسرائيل هو جريمة شنعاء». ومثل جماعة الجهاد الإسلامية، رأت حماس الصراع العربي الإسرائيلي من منظور ديني. واعتقد أعضاؤها أن المأساة الفلسطينية حدثت لأن الناس أهملوا دينهم، وأنه ليس باستطاعة الفلسطينيين التخلص من الحكم الإسرائيلي سوى بالعودة إلى الإسلام.

واعتقدت حماس أن نجاح إسرائيل يرجع إلى العقيدة اليهودية، وأن إسرائيل مكرسة لتدمير الإسلام. ومن ثم، فقد ادعوا أنهم يخوضون حرب دفاع عن النفس. فبعد أن قام باروخ جولدشتاين بمذبحة المصلين في الحرم الإبراهيمي أقسمت حماس على الثأر لكل منهم فرداً فرداً. وانتظر النشطاء حتى بعد حداد الأربعين، ثم قام أحد الأعضاء بقتل سبعة إسرائيليين في هجوم انتحارى بالقبايل في أفولا في قلب إسرائيل لا في الأرض المحتلة. وبعد أسبوع واحد قتل انتحارى آخر خمسة إسرائيليين في حافلة. فقد ولد العنف عنفاً.

وقد تسببت هذه الهجمات الانتحارية في تحفظ الكثيرين على اتفاقيات أوسلو التي كانت قد وقعت في العام السابق واعترفت بمقتضاها منظمة التحرير بوجود إسرائيل في نطاق حدود ١٩٤٨، وتعهدت بوضع حد للعنف والإرهاب في مقابل استقلال محدود للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة لمدة خمس سنوات تبدأ بعدها المرحلة الأخيرة من المفاوضات بخصوص قضايا الاستيطان الفلسطيني في

الأرض المحتلة، وتعويض اللاجئين الفلسطينيين ومستقبل القدس. إلا أن تفجيرات القنابل الانتحارية أوضحت أنه ليس باستطاعة عرفات التحكم فى القتالين الإسلاميين الذين يعارضون نظامه العلمانى. واتهم بعض الإسرائيليين، خاصة الذين ينتمون إلى اليمين السياسى رابين بتعريض أمن إسرائيل للخطر فى أوسلو.

وقد أثارت اتفاقيات أوسلو غضب الحاخامات الشديد، خاصة أتباع كوك. واعتبروا أن الحكومة ارتكبت فعلاً إجرامياً بتوقيعها على التنازل عن أرض مقدسة. وهكذا، أمر الحاخام آفراهام شابيرا وأربعة عشر حاخاماً آخرين من الجوش فى شهر يوليو عام ١٩٩٠، الجنود بعصيان أوامر رؤسائهم العسكريين بالجلاء عن بعض الأراضى المحتلة. وكان هذا يرقى إلى كونه حرباً أهلية. وتساءل حاخامات آخرون عما إن كان رابين قد أصبح Rodef أى «متعقباً»، وهو الشخص الذى يهدد حياة شخص يهودى تهديداً نشطاً والذى يقضى القانون اليهودى بقتله. وفى نوفمبر عام ١٩٩٥ قام طالب فى جامعة بار إيلان باغتيال رابين أثناء مسيرة من أجل السلام. وقال القاتل فيما بعد إن دراسته للقانون اليهودى قد أقنعته أن رابين كان «متعقباً» وأنه عدو للشعب اليهودى ومن ثم ينبغى قتله.

ومثل اغتيال السادات، أوضح مقتل رابين أن ثمة «حربين» تتواجدان فى الشرق الأوسط. وإحدى هاتين هى الصراع العربى الإسرائيلى أما الأخرى فهى حرب فى داخل كل بلد على حدة، مثل مصر وإسرائيل بين العلمانيين والمتدينين. وليس اليهود المتدينون وحدهم هم من يشعرون بالحنق العميق وبأنهم يهاجمون. فبالمثل، يشعر العلمانيون فى إسرائيل بالاستياء من اليهود المتدينون الذين يهاجمونهم. فأثناء تجوله فى منطقة للحريديم بالقدس، تذكر الروائى الإسرائيلى المرموق عاموس عوز أن الصهاينة الأوائل كانوا يكرهون اليهودية الأرثوذكسية وكانوا «يودون نفى هذه الحقيقة من العالم حولهم ومن أرواحهم. فقد صوروا، فى تفجر للكراهية والبغضاء، هذا العالم كمستنقع، كومة من الكلمات الميتة وأرواح خامدة» وقد استجاب الحريديم لتلك البغضاء العلمانية بنفس الأسلوب. فقد لاحظ عوز على الجدران فى الأحياء التى يقطنها النيتورى كاراتا (حراس المدينة) رسوماً لصلبان معقوفة سوداء وكتابات تقول: «الموت للهتلريين الصهاينة»، و«إلى

الجحيم يا تيدى كوليك» (رئيس البلدية فى حزب العمل). وتذكر عوز أيضاً مدّرسه دوف سادان الذى تجادل بشأن الصهيونية العلمانية قائلاً إنها مجرد حلقة فى التاريخ اليهودى وستنتهى وتعاود اليهودية الأرثوذكسية الظهور «وتلتهم الصهيونية وتبتلعها» وشعر عوز وهو يتجول فى شوارع ذلك الحى الأرثوذكسى برهاب الاحتجاز وسحقته حيوية اليهودية الحريدية «إذ إنها تنمو وتتضخم، وتهدد وجودك الروحى، وتلتهم جذور عالمك وتستعد لوراثته كله حينما ترحل أنت وأمثالك». فكما يبدو، فإن الإسرائيليين العلمانيين يخشون أيضاً الإبادة ويشعرون بالرعب اللاعقلانى حينما يواجهون أعداءهم المتدينين.

وقد لمس عوز جوهر المشكلة. فالأصوليون والعلمانيون ـ من أية عقيدة ـ فى حالة حرب لأن مفاهيمهم عن المقدس جد مختلفة، فحينما تحدث عن الجوش أمونيم، أسماهم عوز «طائفة قساة الأفئدة أتوا من ركن مظلم من اليهودية، يهددون بتدمير كل ما هو عزيز ومقدس لدينا». وبالنسبة للعلمانيين، سواء كانوا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين، فإن قيماً تنويرية مثل استقلال الفرد والحرية الفكرية، هى قيم مقدسة لا تنتهك. ولا يمكنهم مقايضة تلك القضايا أو تقديم تنازلات بشأنها حيث إنها مبادئ مركزية للهوية الليبرالية أوالعلمانية لدرجة أن الناس يشعرون أن وجودهم نفسه مهدد لدى أى تهديد لتلك القيم. فكما يخشى الأصوليون الإبادة على أيدى العلمانيين، رأى الليبرالى عوز أن الجوش يتوعدون بأن «ينزلوا بنا شهوة دم متوحشة مجنونة» ثم يواصل قوله:

«إن الهدف الرئيسى للجوش ليس غزو نابلس أو الخليل، بل هو فرض نسخة قبيحة ومشوهة من اليهودية على دولة إسرائيل. هدفهم الأساسى هو طرد العرب لكى يقمعوا اليهود فيما بعد للدفع بنا جميعاً تحت سطوة أنبيائهم المرضى». ويحدق المتدينون والعلمانيون فى بعضهم وقد تملكهم الرعب. ولا يستطيع أى منهم أن يرى الآخر بوضوح. ويسترجع كل من الجانبين التجاوزات وأفعال القسوة وعدم التسامح «للجانب الآخر». ولا يستطيعون التوصل إلى وفاق وقد تعمقت جراحهم حتى وصلت القلوب.

كان هناك أيضاً استقطاب وأفعال عدائية فى أمريكا. وبدا الأصوليون

الأمريكيون على درجة أكبر من التحكم في النفس وإطاعة القانون. فلم يقم الأصوليون الأمريكيون باغتيال رؤساء جمهوريتهم ولم يقودوا ثورات أو يحتفظوا برهائن. إلا أن صدعاً عميقاً قسم الدين في أمريكا. فقد بينت استطلاعات الرأى أن السكان المتدينين في أمريكا منقسمون انقساماً تاماً إلى معسكرين شبه متساويين ومتعادين. فقد بين استطلاع جالوب الذى أجرى في يونيو عام ١٩٨٤ أن ٤٣٪ من الأمريكيين دعوا أنفسهم ليبراليين، وأن ٤١٪ منهم اسموا أنفسهم محافظين، وأن معظم الطوائف منقسمة مناصفة. وقد تجادل معظم من أدلوا بأصواتهم مبينين أن الصدع خطير. وكانت صورتهم «للجانب الآخر» سلبية، ولم تتغير هذه الصورة، كما تتغير أشكال أخرى من التعصب لدى اتصالهم ببعض عن قرب. كما بينت استطلاعات أخرى أنه رغم أن ٩٪ فقط ميزوا أنفسهم كأصوليين إلا المبادئ الجوهرية للأصولية البروتستانتية كانت واسعة الانتشار:

اعتقد ٤٤٪ أن الخلاص يتأتى فقط عن طريق المسيح عيسى.

وصف ٣٠٪ أنفسهم بأنهم «ولدوا من جديد».

اعتقد ٢٨٪ في وجوب تفسير الإنجيل حرفياً.

أنكر ٢٧٪ احتمال احتواء الإنجيل على أخطاء علمية وتاريخية.

ويعزى نجاح الأصولية الأمريكية إلى براعة تسويق جيرى فولويل والإنجيليين المتلفزين الآخرين. فثمة عناصر في الثقافة والحياة الدينية الأمريكية تشجع هذه العقيدة الحرفية وتمدها بتربة خصبة.

إلا أنه حدثت نكسة شديدة للأصوليين خلال الثمانينيات. فلم تحدث حملة إرهاب ولم يقع اغتيال رئيس جمهورية. وبدلاً من هذا، تسببت إحدى الفضائح في الإضرار بقضية الأصوليين، وكانت مدمرة وعدمية بأسلوبها الخاص؛ وهددت بإغراق الإنجيليين المتلفزين في بحر من التفاهة والتكالب على الأموال والمخططات الجنسية.

فهل كانت ثمة أشياء في طبيعة الأصولية الأمريكية ساهمت في فضائح عام ١٩٨٧؟

فنظراً للاهتمام المسيحى بالمبادئ والتعاليم. اتخذت الأصولية الأمريكية مساراً فى اتجاه يخالف الحركات الأخرى التى بحثناها. لقد كان يعنى التأكيد اليهودى الإسلامي على الممارسات أن أصوليي هذه العقائد حولوا أساطير موروثاتهم إلى أيديولوجيات. وحدثت بعض أسوأ إفراطاتهم لأنهم حاولوا تنفيذ تلك الأساطير حرفياً فى العالم الواقعى. فقد سعوا إلى الوصول إلى معيار الكفاءة الحديث الذى يستلزم أن يكون تطبيق «الحقيقة» فاعلاً كي تؤخذ مأخذ الجد. فحول الأصوليون اليهود والمسلمون منطق عقيدتهم الروحاني إلى منطق عقلانى براجماتى بهدف تحقيق نتائج عملية، وأوجدوا بذلك هجيناً لاهو بالعلم الجيد ولا بالدين الجيد. وكان على هذا الهجين أن يأخذ اتجاهاً مضاداً لموروث كامل من الروحانية ويجابهه مما أدى إلى توتر وافتعال عظيمين مصدرهما أن الحقيقة ليست عقلانية منطقية بطبيعتها ولا يمكن تقديم البرهان عليها عملياً. ولأن الأصوليين البروتستانت كانوا يميلون إلى تجاهل ما هو تلقائى وروحانى تصوفى، فقد فقدوا الصلة بدوافع اللاوعى الأعمق للشخصية الإنسانية. وكنتيجة لهذا، كان الإحياء الأمريكى أحياناً عماءً يتميز بالعصابية. إلا أنه بنهاية الثمانينيات كان بعض الأصوليين على استعداد للثورة على قيود العقيدة العقلانية. وكما رأينا، كان الجنس إحدى إشكاليات الأصوليين البروتستانت. كما تملك الكثيرين منهم القلق بشأن الفحولة والحدود بين الأنواع. فلم يكن إذاً من المثير للدهشة أن يأخذ التمرد لدى حدوثه شكلاً جنسياً.

ويشكل البث التليفزيونى، والمداهنة العامة التى تصاحبه أحياناً، مصائد لغير الحذرين روحانياً. ولا يقتصر الأمر على النرجسية التى تتضمنها عبادة الشخصية، والتى لا تتماشى مع التسامى مع الذات، وهو من الشروط المميزة للمسعى الروحانى، بل يصبح هناك احتمال خطر أن يفقد الإنجيليون المتلفزون صلتهم بالواقع. ولم تتوافق المبالغ الهائلة من الأموال التى كانت فى قبضة الشبكات التليفزيونة الأكثر نجاحاً مع تعاليم الكتاب المقدس بنبذ المسعى إلى الإثراء المادى. واجتذب جيم وتامي فاى باكر أصحاب شبكة PTL (المجد للرب وللمحبين من البشر) فى كارولينا الشمالية الانتقادات السلبية لأسلوب حياتهما الباذخ. وكانت صحيفة تشارلوت أبزيرفر قد دأبت لعدة سنوات على إيضاح كيف أنفق

جيم وتامي ٣٧٥,٠٠٠ دولار على منزل مشترك يملكانه مطل على المحيط و٢٢,٠٠٠ دولار على مرايا تحمله ترتفع من الأرض إلى السقف وكان هذا الأسلوب يختلف كثيراً عن نظام فولويل في ليتشبرج الذي تميز بالاتزان وضبط النفس.

وكان الزوجان باكر يشتهران على وجه الخصوص بحديقة التيمة المسيحية «إرث الولايات المتحدة» التي كانت تقدم تجربة الإنجيليين في أمريكا الشمالية بأسلوب ديزني وتجتذب أعداداً ضخمة من الزائرين. وتقترح سوسان هاردنغ عالمة الأنثروبولوجي الأمريكية في مقال آسر لها أنهما كانا يقومان بعرض ثورة واعية على تدين فولويل المتزن ويدفعون بالأصولية باتجاه مرحلة ما بعد حداثية جديدة. فقد استجابت الأصولية منذ أواخر القرن التاسع عشر لتحدى الحداثة بأن حاولت جعل العقيدة عقلانية بشكل كامل. فأكدوا على فضيلة المنطق والعقلانية الواضحة، واعتنقوا حرفية متزنة تتجنب الخيال والفانتازيا. وقاموا بتنظيم الحياة في شكل أقسام مستقلة محكمة حيث كان الصواب مميزاً عن الخطأ بشكل كلى واضح. وتم وضع المؤمنين في تصنيف يختلف تماماً عن تصنيفات العلمانيين والمسيحيين الليبراليين. وكانت أخلاقياتهم أخلاقيات فصل: فأوجد الأصوليون ثقافة مضادة افترض فيها أن يكون كل شيء مخالفاً للتيار الرئيسي. ووفرت هذه العقيدة يقيناً صلباً وهرمية تتحدى الشكوك والأسئلة المفتوحة والأدوار المتغيرة المتبادلة للعالم الحديث. وكانت حديقة «إرث الولايات المتحدة»، مثل أشكال ثقافة ما بعد الحداثة الأخرى، قد تميزت بخلط الأنواع، واللعب، والمتعة، والمشهد الآخاذ.

وبمحاولتهم جعل عقيدتهم علمية وعقلانية، دفع الأصوليون بالدين ليصبح أسلوباً غير طبيعي. وكما ثار الأصوليون على عقلانية داروين العلمية والتساؤل الحر، بأن تمسكوا بمثال بيكون، قام الزوجان باكر بالثورة على عقلانية الأصوليين الذين ينتمون للأسلوب القديم من أمثال فولويل. وكما تبين هاردنغ فقد كانت «إرث الولايات المتحدة» في عرضها للتاريخ المسيحي الأمريكي تجميعاً لمصنفات في مزيج مفرط. وبدلاً من التأكيد على أن الحقيقة واقعية، جذبت عروض «إرث

الولايات المتحدة، الانتباه إلى تجميعاتها المصطنعة غير الطبيعية في الحديقة. وأتى المركز التجاري هناك مزيجاً من المعمار الفيكتوري والكلونيالي؛ خليطاً كهربائياً لأساليب وفترات دون أية محاولة لتمثيل الواقع. ففي المدخل، تم عرض مسكن بيلي جراهام «الفعلي» (كما قيل) إلا أنه كانت هناك صور على الجدران تبين أنه هدم وأعيد بناؤه في الحديقة، فقد كان نقله من موقعه الأصلي جزءاً من المعنى المستهدف. وكانت هناك «نسخة طبق الأصل» من الغرفة العليا Upper Room في القدس الذي يعتقد أن المسيح تناول عشاءه الأخير ودشن القربان المقدس فيها، إلا أنها بدت وكأنها نسخة أعيد إنتاجها عن عمد. وكانت الطقوس الكنسية تقام في استوديو تليفزيوني، إلا أنه، وخلافاً لفولويل، لم يصوّر الزوجان باكر أبداً الطقوس والتناول والصلوات والوعظات النظامية كما كانت تؤدى. فقد كان التأكيد باستمرار على العرض، أي على الأداء المسرح والمشهد والفنتازيا لا على «الكلمة» الحرفية الأصولية.

وتقترح هاردنج أيضاً أن الزوجين باكر، اللذين أكدا على الحب اللامتناهي للرب، كانا يطوران لاهوتاً شعبياً للرحمة اللامتناهية والذي بدا وكأنه يكاد يكرس للخطيئة، إذ كان يتعهد بالغفران الإلهي مقدماً. وقد شهدنا كيف أنه حدث أحياناً وأن انفجر التمرد المعادي لإلزام القوانين الأخلاقية في فترات الانتقال حيث لم تعد أساليب الحياة والقواعد القديمة تناسب الظروف المتغيرة لبعض المؤمنين الذين كانوا يشعرون بالتقيد ويحاولون الوصول إلى شيء جديد، ومن ثم يجدون الراحة في كسر المحرمات القديمة. وذهب البعض لدرجة أنهم طوروا شرائع «للخطيئة المقدسة». وفي مارس عام ١٩٨٧، حينما انفجرت أخيراً الفضيحة التي استأثرت باهتمام الأمة وجعلتها تحبس أنفاسها، بدا وكأن شيئاً مماثلاً كان يحدث أيضاً في دوائر شبكة PTL (Praise the Lord and the People that Love) التليفزيونية، فادعت صحيفة تشارلوت أبزرفر أن جيم باكر قد قام بتخدير واغتصاب جيسكا هان، وكانت سكرتيرة إحدى الكنائس من لونج آيلاند، ودفع لها ٢٥٠,٠٠٠ دولار في مقابل صمتها. واتضح في أعقاب هذا الكشف أن تامي فاي كانت قد أولعت بجراي باكستون مطرب أغاني الريف والغرب الأمريكي لدرجة أنها هدمت زواجه. وحينما انكشفت تلك الحقائق الوضيعة، لم يتسلل

الزوجان باكر في خزى، بل ظهرا علناً وهما يبديان أسفهما العميق، ويثرثران أمام جمهور ضخم من مشاهدى التليفزيون عن حب الرب وغفرانه.

كان نظام فولويل في لينشبرج محاولة للتمسك بقيود الدين المحافظ ما قبل الحديث والذى أعان الناس على تقبل الحدود الضرورية. وتوضح قصة الزوجين باكر ما يحدث حينما يعم نبذ تلك القيود كلية. فعلى حين أن بعض الحركات الأصولية الأخرى قد نجت من خبرة القمع، عبرت مسيحية الزوجين باكر عن قناعة آخر القرن العشرين بأن أى شيء يمكن أن «يمر». وشعر الزوجان، بما يملكانه من أموال جمة، بإمكان حدوث أى شيء. فلم تكن ثمة حدود حتى إنه أصبح بالإمكان إذابة مصنفات الصواب والخطأ القديمة تماماً في «إرث الولايات المتحدة» كما يحدث في الحقيقة والخيال. وغني عن القول إن كل هذا كان تشويهاً للمسيحية.

ثم اتبع هذا كشفاً عن حقائق أخرى رهيبة. فقد استقال چيم باكر من PTL، وطلب من فولويل أن ينقذ الشبكة بأن يعمل كراع مؤقت لها. ثم انقلب چيم على چيمى سواجارت الذى كشف عن الفضيحة وادعى أن سواجارت كان يخطط للاستيلاء على شبكة PTL. وظهر أن لسوجارت جولاته الخاصة في الانقلاب على القوانين الأخلاقية. وكان سواجارت حينذاك أكثر الإنجيليين المتلفزين نجاحاً تقريباً. فقد كانت برامجه تبث في ١٤٥ دولة، كما ادعى، وكانت في متناول نصف أسر الكرة الأرضية. إلا أنه كان يزور إحدى العاهرات في بيتون روج بلويزيانا. وقد أوضحت المرأة، التي قامت ببيع القصة فيما بعد، إنه لم يكن مهتماً بالجنس. بل بالإذلال والتحقير الطقوسي. وبدا وكأنه كان يسعى وراء تحطيم الذات، إذ إنه كان يعرف أن الناس قد شاهدوه وتعرفوا عليه في ذلك المكان، ومع ذلك دأب على ارتياد المكان حتى انطلقت الجحيم من عقالها. وفضح سلوكه رجل دين آخر، وهو مارفن جورمان الذى كان سواجارت قد هاجمه في عرضه التليفزيوني.

وكان سواجارت من أتباع الكنيسة الخمسينية Pentacostal. وفي الأوقات المبكرة، كانت أتباع تلك العقيدة الطرف النقيض للأصولية، إذ حاولوا تخطى العقل المنطقي والتعبير عن الحقيقة الإلهية التي لا يمكن التلفظ بها. وبصفتها

هذه، سعت تلك العقيدة باستمرار في اتجاه خطر الولوج غير المنظم إلى عالم اللاوعي وباتجاه المخاطر التي تصحب دوماً التخلي عن العقل. إلا أن العقيدة، في مبدأ أمرها، تميزت دائماً بالشمول والتخطي المتعاطف لحدود الطبقات والأجناس. أما سواجارت، فكان يبشر بديانة بُغض. فقد اشتهر بهجماته البذيئة على الشواذ. وكان موضوع الشذوذ هاجساً كشف، بالتأكيد، عن اضطراب دفين بشأن نزوعاته الجنسية الخاصة. كما أنه انقلب انقلاباً شريراً ضد رجال الدين المنافسين له من الإنجيليين المتلفزين، ولحق بحملة صليبية أصدر فيها الأحكام على «الأغلبية الأخلاقية». وبنبذه القيود التي تفرضها نظم الخير ونظم العقل أيضاً، اعتنق سواجارت تديناً عدمياً مدمراً للذات بأسلوبه الخاص، مثل حركات أخرى سبق لنا بحثها.

وقد وجد الصحفي الأمريكي لورانس رايت جاذبية خاصة في أسلوب إلقاء سواجارت المُغرق في العاطفية للمواعظ. وشعر أن سواجارت كان يتمرد على قيود الحداثة العقلانية. فقد كان أسلوبه «عاطفياً لدرجة التحدى»، يبعد سنوات ضوئية عن «الفعل العقلاني القاحل» الذى عرفه رايت في تدين طفولته. واكتشف أن جزءاً من نفسه كان يتوق إلى «نشوة التخلي عن عقلي الخاص المشغول الذى يميل إلى إصدار الأحكام الساخرة». وكذلك كان يفعل مشاهدو سواجارت الذين كانوا يستجيبون وهم في حالة نشوة لوعظه الذى يستحضر لحظات الذروة الجنسية.

«فقد كان يغوص أعمق وأعمق في اللاوعي، ويبحر متجاوزاً العقل والمعنى الواعي إلى العواطف والأحاسيس المفعمة والمخاوف الدفينة والرغبات التي لا اسم لها والتي تغلي في الباطن. كان صوته يرتفع ويرتعش، وتتبدد القواعد اللغوية، إلا أنه كان يتعثر باتجاه عصب التوق العارى المنكمش القابع. وكان يعرف مكانه. وكان المرء يرقبه برعب ورغبة لأن ذاك هو العصب المتصل بالعقيدة.. وبالتوق للحب والخلاص - إلى أن تحين اللحظة التي يلمس فيها العصب أخيراً. فتنهمر الدموع، ويقف المشاهدون رافعين الأكف، يضحكون وينتحبون ويشكرون الرب، ويتحدثون بلغات غير معروفة، وهم يرتعدون من الألم واللذة نتيجة هذا العرض المثير العلني».

وكانت أفضل الروحانيات قبل الحداثية مثل روحانية يوحنا الصليبي وأيزاك لوريا والملا صدره قد تجنبت الإغراق العاطفي حيث إنه لا علاقة له بالدين. وأصر هؤلاء على أن الرحلة الباطنية هادئة ومنظمة يكملها العقل. كما لم يحدث ودخل أحدٌ أسرار تنظيم القبالاة قبل أن يبلغ الأربعين ويتزوج ويصل إلى التوازن الجنسي. وقد فقد العالم الحديث، الذي أهمل الممرات الأكثر تلقائية للمعرفة، ذلك التراث الصوفي الروحاني. ويبرهن نجاح سواجارت على أن الناس يتوقون للنشوة في عالم طغت عليه العقلانية، إلا أنه يبرهن أيضاً أن هذا المسعى قد يفقد توازنه. فيبدو أن سُعر سواجارت كان مرتبطاً أكثر بحاجاته الجنسية، (ونستعمل هنا كلمات رايت في سياق مختلف) إلى «الفضح العلني المثير» في موتيل بيتون روج، أكثر من ارتباطه بالروحانية.

إلا أنه قد تم البرهان على فشل العقيدة الأصولية بدرجة أكبر بالمقت والغضب اللذين أظهرهما الإنجيليون المتلفزون ضد بعضهم بعضاً أثناء الفضيحة. فحينما تنامت علاقة باكر الجنسية مع جيسكا هان إلى أسماع سواجارت، تذكر أحد مساعديه السابقين أنه «انقض على جيم باكر كما ينقض الكلب الشرس على جرو صغير من فصيلة البودل الفرنسية» فقد «حطم الرجل ومزقه إرباً». وعقب هذا، انقلب باكر على جيري فولويل الذي كان قد سارع بإنقاذ الـ PTL واتهمه باستغلال الموقف للسيطرة على الشبكة. وثأر فولويل لنفسه بأن استدعى مؤتمراً صحفياً حيث أبرز شهادات خطية تحت القسم لرجال ادعوا أنهم كانوا على علاقات جنسية بجيم باكر، مع مذكرة من تامي فاي عددت فيها ما تطلبه من PTL في مقابل أن تبتعد وتلوذ بالصمت وكان ذلك: ٣٠٠,٠٠٠ دولار سنوياً لجيم، و١٠٠,٠٠٠ لنفسها، وحقوق الملكية لجميع كتب وتسجيلات PTL، ومسكنها الذي يساوي ٤٠٠,٠٠٠ دولار وسيارتين، وجهاز من رجال الأمن، وأتعاب قضائية إلى جانب أجور المحاسبين الذين كانوا يحاولون فحص وتنظيم حسابات الزوجين باكر التي كانت في حالة فوضى كبيرة.

وبدا أن مشروع الأصولية العظيم قد انتهى إلى طريق مسدود قاحل غير ذي معنى وكان فولويل. في العام السابق على الفضائح، يمتلىء ثقة. وكان قد غير

اسم «الأغلبية الأخلاقية» إلى «فدرالية التحرر» وأعلن أن الكثيرين من أعضائها سيرشحون أنفسهم للمناصب في انتخابات عام ١٩٨٨ على المستوى المحلي، ومستوى الولايات، والمستوى الفدرالي. إلى أن فولويل استقال في نوفمبر ١٩٨٧ بعد كارثة PTL من رئاسة «الأغلبية الأخلاقية» و«فدرالية التحرر» وأعلن انتهاء عمله السياسي وأنه لن يعمل أبداً من أجل أي مرشح كما عمل من أجل رونالد ريجان ولن يضغط من أجل أي تشريع. وفي أعقاب الفضائح انخفض دخله من «ساعة الزمن القديم للإنجيل» ووجد نفسه مجبراً على العودة إلى كنيسته الإنجيلية الخاصة. ومازال فولويل يطفو على السطح بين الحين والآخر شاجباً بعنف الشرور التي تعاني منها الأمة، إلا أنه بغير استطاعته إيجاد تحالف وشيك للمتدينين المحافظين يقلب به الأوضاع في الولايات المتحدة. وحينما فشل طلب ترشيح پات روبرتسون نفسه للرياسة، بدت الهجمة الأصولية التي كانت قد بدأت عام ١٩٧٩، وقد أعلنت فشلها. وبدا أن اليمين المسيحي الجديد وقد لحقه العار، قد أخفق رغم أن مسيحيين فرادى يواصلون الضغط من أجل البعث بناخبيه إلى صناديق الاقتراع، إلا أن العلمانيين عامة قد افترضوا أن تهديد الأصولية قد انتهى.

بيد أن الأصولية لم تمت: فقد دخلت في الواقع مرحلة جديدة أكثر تطرفاً في أمريكا، ففي ٢٨ فبراير عام ١٩٧٨ قاد راندال تيري، وهو أحد المسيحيين الذين شهدوا «ميلاداً جديداً» من شمال ولاية نيويورك، ثلاثمائة «منقذ» إلى عيادة إجهاض في تشيري هيل بنيوچيرسي. وهناك أدوا الطقوس الدينية عند ما أسماه «عتبة الجحيم» لمدة تقرب من إحدى عشرة ساعة قضوها يصلون ويرتلون المزامير ويمنعون النساء والعاملين من الدخول إلى العيادة. وبنهاية اليوم تم القبض على ٢١٦ من «المنقذين»، إلا أن تيري أعلن بانتصار «أنه لم يمت أي جنين» وكان هذا أول فعل «لعملية الإغاثة» التي أعلنت الحرب على ثقافة التيار الرئيسي بأن صورتها على أنها قاتلة في جوهرها. وكانت صور الخطاب المستخدمة قتالية. وخلال مؤتمر الحزب الديموقراطي في أطلانطا عام ١٩٨٨، بدأت الحملة ما أسماه تيري «حصار أطلانطا» الذي ألقي القبض فيه على ما يربو على ١٣٠٠ متظاهر لحصار عيادات الإجهاض. ومنذ ذلك الحين، عمدوا إلى إقامة «أيام الإنقاذ» في كل أنحاء كندا والولايات، ونظموا أياماً للتدريب ليحاصروا «المنقذين» المحتملين من

شرور التسوية والحكومة الليبرالية ويلقنونهم التعليمات عن تقنيات جماعات الضغط. ووصفوا «عملياتهم» بأنها «أفعال إنقاذ إنجيلي». وخلافاً لفولويل وروبرتسون كان تيري على استعداد للعمل خارج نطاق القانون. فقد كان هدفه أصولياً، أي «خلق أمة تصبح فيها الأخلاقيات اليهودية المسيحية أساس سياستنا، ونظامنا القانوني، وأخلاقنا العامة؛ أمة لا تطفو على بحر الإنسانية غير المستقر، بل بلد أساسه الوطيد هو القوانين العليا التي لا تتزحزح».

ولم تكن الحملة فقط ضد الإجهاض أكثر مما كانت محاكمة سكوبكس عن التطور. فيعتقد تيري وجماعته من «المنقذين»، كما اعتقد وليام جننجر برايان في العشرينيات أنهم يقاتلون أحد تجليات الحداثة العلمانية الأكثر توحشاً. ويعتقد تيري أنه إن لم تنجح عملية «الإنقاذ» «فلن يكتب لأمريكا البقاء». إلا أنه واثق، فهو يصر على «أننا لدينا جيش من الناس، وسينخفض، نتيجة لهذه العمليات، معدل قتل الأطفال، وسيتبع هذا (القضاء على) بورنوجرافية الأطفال، والبورونوجرافية عموماً، والقتل الرحيم، وقتل الأجنة.. فإننا نستعيد الثقافة». فهي حرب لدرء الكارثة الوشيكة وإنقاذ المدنية الأمريكية.

وتخوض «حركة إعادة الإنشاء» التي أسسها الاقتصادي جاري نورث من تكساس هو وحموه روساس چون رشدوني، حرباً ضد الإنسانية العلمانية أكثر تطرفاً من الحرب التي تخوضها «الأغلبية الأخلاقية». فقد نبذ الإنشائيون التشاؤم قبل الألفي من أجل أيديولوجيا أكثر إحداثاً للأثر. ومثل الأصوليين الإسلاميين، يهتم نورث ورشدوني، في المقام الأول، بسيادة الرب إذ يريان أنه لابد من إرساء ثقافة مسيحية تهزم الشيطان وتستدعي المملكة الألفية. أما المفهوم الأساسي لحركة «إعادة الإنشاء» فهو «السيادة». فقد أوكل الرب إلى آدم، ونوح من بعده، مهمة السيطرة على الأرض. وقد ورث المسيحيون هذه الوكالة وعليهم مسئولية فرض حكم المسيح على الأرض قبل قدومه الثاني. إلا أنه ليس للمسيحيين حاجة أن يفعلوا شيئاً لإنجاز هذا، لأن الرب نفسه سيطيح بالدولة الحديثة في كارثة رهيبة. وسيجني المسيحيون النصر الذي يصنعه الرب.

وفي هذه الأثناء يدرّب أعضاء الجماعة أنفسهم على الإمساك بزمام الأمور لدى

تدمير الدولة العلمانية. ورؤيتهم هذه، ما هي إلا تشويه كلي للمسيحية في نبذها للأخلاقيات ومنطق التعاطف. ويعتقدون أنه حينما تأتي ملكة الرب، لن يصبح ثمة فصل للدين عن الدولة، وستمحى هرطقة الديموقراطية الحديثة، ويعاد تنظيم المجتمع على أسس إنجيلية صارمة. ويعني هذا أنه يجب تطبيق كل تعاليم وقوانين الإنجيل حرفياً. فستعود العبودية، ولكن يكون هناك تحديد للنسل (لأن على المؤمنين أن يتكاثروا ويتوالدوا)، وسيُقضى بإعدام الزناة والشواذ ومن يكفر بالكتاب والمنجمين والساحرات. وسيُرجم الأطفال الذين يثابرون في عصيانهم والديهم كما نص الإنجيل. كما يجب تطبيق اقتصاد رأسمالي صارم لأن اليساريين وذوي الميول اليسارية خطاة. فالرب لا يساند الفقراء، وحقاً، كما يبين نورث «فهناك صلة محكمة بين الفقراء والشر». فلا يجوز استعمال الضرائب في برامج الضمان الاجتماعي حيث إن «دعم الخاملين هو دعم للشر» وينطبق هذا على العالم الثالث الذي تسبب إدمانه الانحراف الأخلاقي والوثنية وعبادة الشيطان في مشاكله الاقتصادية. فالإنجيل يحظر المساعدات الخارجية. وعلى المسيحيين أن يعدوا أنفسهم أثناء انتظارهم للنصر ـ الذي يعترف نورث أنه قد يتأخر بعض الوقت ـ لإعادة بناء العالم طبقاً لبرنامج الرب ويجب دعم سياسات الحكومة التي تقترب من تلك المعايير الإنجيلية الصارمة.

والسيطرة أو «السيادة» كما يتصورها نورث ورشدوني شمولية. فلا مجال لأي رأي أو سياسة أخرى، وليس ثمة تسامح ديموقراطي لأحزاب منافسة. كما علموا أن فرص شعبية مثل تلك الشريعة في الولايات المتحدة هي بعيدة بالتأكيد. لكنه اقترح أن تحل الدولة الكنسية السلطوية محل الحكومة الليبرالية التنويرية إذا حدثت كارثة اقتصادية أو بيئية. فقد استطاعت المسيحية، بعد كل شيء، تبني الرأسمالية التي كانت غريبة على كثير من تعاليم المسيح. ومن ثم، يمكن توظيف المسيحية لمساندة الأيدولوجيا الفاشية التي قد تكون ضرورية للحفاظ على النظام العام في ظروف متغيرة تغيراً متطرفاً.

وقد أبدى بعض أتباع طائفة البنتاكوست (الكنيسة الخمسينية) الأكثر محافظة اهتماماً بأيديولوجية «إعادة الإنشاء»، رغم أن رشدوني ينظر بازدراء إلى

تلك الطائفة. أما پات روبرتسون، فيبدو شخصية انتقالية. فهو معمدانى ذو توجهات بنتاكوستالية وإحيائية. وهو يعتقد، مثل نورث، أن القدوم الثانى قد لا يكون قريباً، وهو اعتقاد يفصله عن الأصولية قبل الألفية. إلا أن روبرتسون يعتقد أنه على المسيحيين محاولة الاستحواذ على مناصب القوة فى تلك الأثناء كى يقيموا مجتمعاً مؤسساً على معايير إنجيلية. ومن ثم، قام بتغيير اسم جامعته فى شاطئ فرجينيا وسماها جامعة ولى العهد، وأوضح أن ولى العهد هو «شخص يحكم فى غياب الملك». وهدف هذه الجماعة هو إعداد طلبتها السبعمائة لتولى مقاليد الأمور حينما تأتى مملكة الرب. فقد تغيرت الأصولية فى أمريكا منذ نشر كتاب «الأصول» (١٩١٠ - ١٩١٥)، وأظهرت توجهات ما بعد حداثية مضادة لقوانين الأخلاق من جهة، وتشدداً ورؤية أكثر شمولية من جهة أخرى.

ولن تختفى الأصولية، فقد شكل الدين لمدة طويلة المعارضة للحكومة. وصعودها وسقوطها كان دوماً دورياً. وتبين أحداث السنوات الأخيرة الماضية وجود حالة حرب أولية بين المحافظين والليبراليين والتى كانت تتضح بشكل مخيف من حين لآخر. وفى عام ١٩٩٢ أعلن فولويل، الذى مازال يتمسك بالأسلوب القديم للأصولية، أنه بانتخاب بيل كلينتون للرئاسة أطلق سراح الشيطان حراً فى الولايات المتحدة. ثم رعد فولويل قائلاً إن كلينتون على وشك تدمير الجيش والأمة «بالسماح للشواذ» بالاستيلاء على مقاليد الأمور. وأن الأوامر التنفيذية بالسماح بالإجهاض فى عيادات ممولة فدرالياً، والأبحاث على أنسجة الأجنة، والتعميد الرسمى لحقوق الشواذ علامات على أن أمريكا قد «أعلنت الحرب على الرب».

وفى عام ١٩٩٣ حدثت إصابات فى تلك الحرب. فقد اقتحم رجال مكتب المشروبات الكحولية والدخان والأسلحة النارية مجمع فرع داڤيد Branch Davidi-an التابع لداڤيد كورش فى واكو بولاية تكساس لما قيل عنه إنه مخزن للأسلحة. وفى الواقع، فإن الفرع الذى كان أحد شُعب المسيحيين السبتيين (Seventh Day Ad-vinists) كان لديه مجموعة من الذخيرة مثل الكثير من الأشخاص والأماكن فى تكساس. إلا أن الجماعة لم تكن لديها خطط ثورية ضد الحكومة وقد قصد بالهجمة استعراض قوة وشرعية حكومة الولايات المتحدة. إلا أنها أتت بنتيجة

عكسية. فقد أدت إلى هجوم لمكتب المباحث الفدرالية FBI على المجمع وإحراقه مباني الطائفة مما نتج عنه وفاة ثمانين رجلاً وامرأة وطفلاً. وفي الوقع، فقد برهنت الحكومة على جهلها بالطائفة، وعجزها أمام المحاصرين وعدم مقدرتها المأساوية على السيطرة على الأحداث.

ومن جانبهم، يعد المسيحيون الأكثر تطرفاً أنفسهم لقتال الحكومة العلمانية. ولم نذكر في هذا الكتاب جماعة «الهوية المسيحية» الفاشية التي تخطت الأصولية بمراحل، ولا توافق، في واقع الأمر على الأصولية. وأعضاء هذه الجماعة يكرهون فكرة «النشوة Rapture» أو اختطاف المؤمنين إلى السماء قبل الأهوال الأخيرة التي يعتقدون أنها أدت إلى إخصاء الدين المسيحي الأمريكي؛ فهم يريدون أن يكونوا معدين في الوقت المناسب لقتال الشر أثناء المحنة الكبرى Tribulation. ومعادين أشداء للسامية، فهم يبغضون دعم الأصوليين للصهيونية، الأمر الذى يرونه خطيئة عظمى. وفي نظرهم، فقد اغتصب اليهود لقب شعب الله المختار من الجنس الآرى، والآن، فقد قاموا باغتصاب الأرض المقدسة التي كان يجب أن تظل تحت الانتداب البريطاني. ولا يعتقدون أن معارك آخر الزمان ستجرى في الشرق الأوسط، بل في أمريكا. كما يتنبئون بهلوكوست جديد يفنى فيه الجنس الأبيض والولايات المتحدة. لذا، فهم يعدون أنفسهم للكارثة. كما أنهم يستبصرون دمار الحكومة الفدرالية الوشيك والتي يدعونها ZOG أو حكومة الاستعمار الصهيوني التي يسيطر عليها الشيطان واليهود وتكرس لتدمير هيمنة الشعب الآرى. وقام بعضهم بتنظيم أنفسهم في مجموعات قتالية في أركان قصية من شمال غرب الولايات المتحدة حيث يتعلمون أساليب القتال ويجمعون المسدسات والبنادق والذخيرة، ويعدون للحرب الأخيرة. ويشن آخرون منهم الهجمات العسكرية غير النظامية على حكومة «الاستعمار» ويقتلون مسئولين من الدولة. كما يقوم بعضهم بتفجير القنابل في عيادات الإجهاض وحرقها. وإن مثل هذه الأيديولوجيا هي التي ألهمت هجمة تيموثي ماكفاي بالقنابل على المبنى الفدرالي في ١٩ أبريل ١٩٩٥.

ومن الصعوبة بمكان توضيح أنشطة وأهداف جماعة «الهوية المسيحية» حيث

إنها ليست جمعية واحدة لكنها تجمع لمنظمات مدمجة لا تضم عدداً كبيراً من الأعضاء الذين قد يتراوحون بين ١٠٠,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ عضو لكنهم ذوو توجهات تبعث على القلق ومثل الأصوليين الآخرين، اعتزل أعضاؤها العالم الذى يحتقرونه ويخشونه ويخططون للاستيلاء عليه. وهم، مثل أكثر أنماط الأصوليين تطرفاً، يرون المؤامرات في كل الأنحاء، ويطورون شريعة حنق واستياء. إلا أنهم فاقوا الأصوليين بأيديولوجيتهم الفاشية المعلنة. وكراهيتهم الخالصة للولايات المتحدة وتطرفهم فى الانسحاب من الحياة الحديثة. ولم تعد مشاكل التعاليم والعصمة الإنجيلية تهم الجماعة، فمجموعات «الهوية» هذه تريد اقتطاع دولة آرية منفصلة خاصة بهم فى أمريكا. وقد طورت «الهوية المسيحية» لنفسها أيديولوجية اغتراب وإرهاب غير مسبوقة في التاريخ الأمريكي. ومثل «إعادة الإنشاء» فإن اتحاد «مجموعات الهوية» غير الحكم إشارة صغيرة لكنها مقلقة لكيفية استعمال الدين ليعبر عن العجز والإحباط وعدم الرضا فى المستقبل. وقد تشعر مؤسسات التيار الرئيسى بتراجع التهديد الأصولي فى أمريكا، إلا أن الحرب مستمرة بالنسبة لبعض المسيحيين الذين يرون وجوب تدمير الحكومة الفدرالية. وبالتأكيد، فإن الصراع سيستمر فى القرن الحادى والعشرين.

ولم يختف الدين، بعد كل شيء. بل أصبح أكثر قتالية من أى وقت آخر فى بعض الدوائر. لقد استجاب الأصوليون فى الأديان الثلاثة بغضب لمحاولة خصخصة الدين وقمعه. وقاموا بإنقاذه، كما يعتقدون، من النسيان وقد ظلت تلك المعركة شاقة، تم تشويه الدين خلال مسيرتها الأمر الذى يمثل هزيمة للدين. إلا أن الأصولية الآن جزء من العالم الحديث. وهى تمثل إحباطاً شائعاً، واغتراباً وقلقاً وحنقاً ليس بوسع أية حكومة تجاهله دون أذى. وظلت المجهودات التى تعالج الأصولية، حتى الآن، غير موفقة. فما هى الدروس التى باستطاعتنا تعلمها من الماضى، والتى قد تساعدنا على معالجة المخاوف التى تنطوى عليها الأصولية بأساليب أكثر إبداعا؟

لاحقة

بغير استطاعتنا أن يكون تدينـنا على شاكلة أسلافنا في العالم ما قبل الحداثي حيث أعان الإيمان الطقوسي، والأساطير الناس على تقبل الحدود الجوهرية في ظل المدنية الزراعية. فتوجّهنا الآن نحو المستقبل، وبغير استطاعة هؤلاء الذين تم تشكيلهم وفقاً لعقلانية العالم الحديث فهم الأشكال القديمة للروحانية. فنحن لا نختلف كثيراً عن نيوتن، أحد أوائل من تشربوا الروح العلمية بشكل كلي في العالم الغربي، والذي وجد من المحال عليه فهم منطق الروح الأسطوري.

فمهما حاولنا جاهدين أن نعتنق الدين التقليدى، فإن توجهنا هو إلى رؤية الحقيقة وقائع تاريخية وإمبريقية. وأصبح الكثيرون مقتنعين أنه من أجل أن يؤخذ الدين مأخذ الجد، فعلى أساطيره أن تبرهن على كونها تاريخية قابلة للتنفيذ على أرض الواقع بكل الكفاءة التى تتوقعها الحداثة. وقد عمدت أعداد متزايدة، خاصة فى العالم الغربى، من الذين خبروا المآسى فى القرن العشرين إلى رفض الدين. ويعتبر هذا موقفاً صادقاً من الذين يرون أن منطق العقل هو السبيل الوحيد لمعرفة الحقيقة. وكما أصر العلماء منذ البداية، فبغير استطاعة منطق العقل التعامل مع قضايا المعنى النهائى التى تقع خارج نطاق المساءلة الإمبريقية. وليس لدى العلم ما يقوله حينما يواجه برعب الإبادات فى قرننا هذا.

ومن ثم، فهناك خواء فى قلب الثقافة الحديثة خبره الناس فى المراحل الأولى للثورة العلمية. فقد تراجع پاسكال، وقد استولى عليه الرعب عندما واجهه خواء الكون. ورأى ديكارت البشر على أنهم السكان الأحياء الوحيدون لكون خامل

عاجز. وتخيل هوبز أن الإله يتأى عن العالم وأعلن نيتشه موته. فقد فقدت البشرية توجهها وألقت بنفسها في خواء لا نهائي.

إلا أن هناك آخرين شعروا بالتحرر وبالتخلص من القيود، بعد أن فقدوا العقيدة، وتجادل سارتر الذى اعترف بوجود ثقب على شاكلة الإله في الوعي الحديث، قائلاً إن علينا رفض الإله الذى ينفي حريتنا. واعتقد ألبير كامو (١٩١٣ - ١٩٦٠) أن رفض الإله سيساعد على حب البشرية وتركيز الاهتمام عليها. ووضع آخرون ثقتهم في مُثل التنوير: وتطلعوا إلى مستقبل يصبح البشر عقلانيين متسامحين، يبجلون الحرية المقدسة للفرد بدلاً من إله متخيّل قصي؛ وأوجدوا أشكالاً روحانية علمانية تمدهم بالتسامي والبصيرة والنشوة، كما طوروا نظمهم العقلية والعاطفية الخاصة.

وعلى الرغم من هذا، فهناك أعداد كبيرة من الناس يريدون أن يظلوا متدينين، وحاول هؤلاء تطوير أشكال جديدة من العقيدة. والأصولية هي فقط مجرد أحد

أشكال التجارب الدينية الحديثة؛ وكما رأينا، فقد نجحت في وضع الدين بوضوح على الأجندة الدولية مرة أخرى. إلا أنها غالباً ما تفقد البصيرة فلا ترى أكثر قيم الأديان السماوية قدسية. فقد حول الأصوليون منطق الروح لدياناتهم إلى منطق العقل بإصرارهم على صحة دوغماهم علمياً، أو بتحويل أساطيرهم المعقدة إلى أيديولوجيات انسيابية مبسطة. حيث يتم بهذا إدماج مصدرين وأسلوبين للمعرفة يكمل أحدهما الآخر، على حين أن الناس في العالم ما قبل الحديث كانوا قد قرروا، عن حكمة، الإبقاء عليهما منفصلين. وتبرهن تجربة الأصوليين على صحة هذه البصيرة المحافظة. فبواسطة الإصرار على أن الحقائق المسيحية وقائع يمكن البرهان عليها علمياً، أوجد الأصوليون البروتستانت كاريكاتيراً لكل من الدين والعلم. كما شوه اليهود والمسلمون الذين عرضوا عقيدتيهما بشكل منطقي عقلاني منهجي، كي ينافسوا الأيديولوجيات الأخرى، موروثاتهم، وضيقوا أفقها، بحيث قلصوها إلى نقطة واحدة من خلال عملية انتقائية متصلبة. وكنتيجة لهذا، تجاهل الجميع التعاليم الأكثر تسامحاً وشمولاً وتراحماً، ونموا شرائع غضب واستياء وانتقام. وقد أدى هذا، بين الحين والآخر، إلى انحراف الدين نتيجة لاستعماله للتكريس للعقل المنطقي. فحتى الأغلبية العظمى من الأصوليين، الذين يعارضون مثل تلك الأفعال الإرهابية، يميلون للقصرية، ويدينون من لا يشاركهم آراءهم.

إلا أن الغضب الأصولي يذكرنا أن ثقافتنا الحديثة تفرض متطلبات شديدة الصعوبة على البشر. فقد منحتنا بالتأكيد مزيداً من القدرات، وفتحت أمامنا عوالم جديدة ووسعت آفاقنا ومكنت كثيراً منا من حياة أكثر سعادة وصحة. إلا أنها كثيراًما أصابت تقديرنا لذواتنا بالعطب. ففي نفس الوقت الذى أعلنت فيه نظرتنا العقلانية للحياة أن البشر هم مقياس جميع الأشياء وحررتهم من التواكل غير المناسب على إله فوق طبيعي، كشفت أيضاً عن ضعفنا وهشاشتنا وفقداننا للكرامة. فقد قام كوبرنيكوس بخلعنا من مركز الكون وأوكل إلينا دوراً هامشياً. وأعلن ديكارت أننا لن نستطيع أبداً التيقن من أن أفكارنا تتوافق مع الحقائق خارج رءوسنا. واقترح داروين أننا مجرد حيوانات، وبيّن فرويد أننا لسنا على الإطلاق مخلوقات عاقلة حيث إننا نتواجد تحت رحمة القوى الطاغية غير العقلانية للاوعي والتى يمكن الوصول إليها فقط بصعوبة شديدة. وهذا في الواقع ما برهنت عليه

التجربة الحديثة فرغم العبادة العقلانية، فقد تم تنقيط التاريخ الحديث بعمليات «اصطياد الساحرات» والحروب العالمية التي كانت عبارة عن انفجارات للاعقلانية. فمع عدم استطاعتنا مقاربة المناطق الأكثر عمقاً في النفس البشرية التي أتاحتها لنا الأساطير، والطقوس الدينية، والممارسات الصوفية القديمة للعقائد المحافظة الأفضل، بدا وأن العقل المنطقي قد أصابه الجنون أحياناً في عالمنا «الجديد الشجاع» ففي نهاية القرن العشرين، تبدو الأسطورة الليبرالية القائلة بأن البشرية تتقدم لحالة أكثر استنارة، على نفس القدر من الفنتازيا مثل أى من الأساطير الألفية التي وردت في هذا الكتاب. إذ إن باستطاعة العقل، في غيبة «قيود» حقيقة روحانية «أعلى» أن يصبح في مناسبات معينة شيطانياً ويرتكب جرائم في بشاعة أى عمل وحشي يأتي به الأصوليون إن لم تكن أكثر بشاعة.

وكانت الحداثة مفيدة وخيرة وإنسانية. إلا أنها كثيراً ما شعرت أن عليها اللجوء إلى القوة خاصة في مراحلها الأولى، وظل هذا صحيحاً بشكل خاص في العالم النامي الذى خبر الثقافة الحداثية الغربية ثقافة غازية إمبريالية غربية. وقد بحثنا عمليات التحديث في العالم الإسلامي التي كانت شديدة الاختلاف والصعوبة. فالحداثة في الغرب تميزت بالاستقلال والتجديد، أما في مصر وإيران، فارتبطت بالاعتماد على الغرب ومحاكاته، كما وعى هذا المؤدلجون الإسلاميون وعياً شديداً. وأدى هذا إلى تغيير فحوى الحداثة في هذه البلاد. فلو عمد المرء إلى إعداد فطيرة مستعملاً مكونات خاطئة (بيضاً مجففاً بدلاً من البيض الطازج وأرزاً بدلاً من الدقيق)، وأيضاً الأدوات الخاطئة، فلن تتوافق النتيجة النهائية مع «وصفة» كتاب الطهو. ومن المحتمل أن يكون الناتج شهياً إلا أنه مختلف. ومن المحتمل أيضاً أن يكون مغشياً إلى حد بعيد. لذا يكون من الأفضل استعمال أدوات ومكونات متاحة محلياً من أجل خلق تقارب أكثر مع النموذج المعتاد وذلك عن طريق توظيف الخبرة المحلية ومهارات «الطهو» المعتادة. ولقد أراد الإسلاميون من أمثال الأفغاني ومحمد عبده وشريعتي والخميني استخدام مكونات إسلامية لإعداد «فطيرتهم» الخاصة المميزة الحديثة.

بيد أنه كان من الصعب على بعض الغربيين، الذين توقفوا عن التفكير بأسلوب

دينى، تقدير مد العقيدة الجديد، خاصة حينما عبر عن نفسه بعنف وقسوة. وكثيراً، ما انقسم المجتمع الجديد إلى «أمتين» من العلمانيين والمتدينين يحيون فى نفس البلد غير مستطيعين التحدث بلغة أحدهم الآخر، أو أن يروا الأمور من نفس المنظور. فما يبدو مقدساً ومؤكداً فى أحد المعسكرات، يبدو شيطانياً ومخبولاً للمعسكر الآخر. ويشعر كل من العلمانيين والمتدينين بالتهديد العميق من بعضهم البعض. ولدى حدوث تصادمات بين رؤاهم عن العالم التى لا يمكن التوفيق بينها، كما حدث فى حالة قضية سلمان رشدى، يتفاقم الشعور بالاغتراب والغربة. ويصبح الموقف غير صحي يحمل كثيراً من المخاطر المحتملة. فالأصولية لن تختفى بل إنها تتطور فى بعض الأماكن من أقوى لأقوى، أو تصبح أكثر تطرفاً. فماذا يمكن للمؤسسة العلمانية الليبرالية أن تفعله لبناء معابر، ولتحاشى احتمال المعارك فى المستقبل؟

ومن الواضح أن الإجابة ليست هى الكبت والقمع إذ إنها تؤدى فى كل الأحوال إلى ردود أفعال سلبية، وبإمكانها الدفع بالأصولية والأصوليين المحتملين إلى التطرف الشديد. فقد أصبح الأصوليون البروتستانت الأمريكيون، بعد إذلالهم فى محاكمة سكوبس، أكثر حرفية وتصلباً ورجعية. كما طفت على السطح أشد أشكال الأصولية السنية تطرفاً فى سجون عبد الناصر، وساعدت هجمات الشاه الشرسة على إلهام الثورة الإيرانية الإسلامية. فالأصولية عقيدة قتالية تتوقع لنفسها إبادة وشيكة. فليس مما يبعث على الدهشة أن تظل مخاوف الهلوكوست والكوارث المعادية للسامية تطارد الأصوليين اليهود صهاينة كانوا أم أرثوذكس متطرفين. فقد كانت عضة القمع عميقة فى أرواح من خبروا العلمنة عدواناً، مما أدى إلى تشوه رؤيتهم الدينية بحيث أصبحت بدورها عنيفة غير متسامحة. ويرى الأصوليون المؤامرة فى كل مكان، ويتملكهم الحنق الذى يبدو شيطانياً أحياناً.

وعلى الرغم من هذا، فإن محاولة استغلال الأصولية من أجل أهداف علمانية براجماتية يأتى بنتائج عكسية. فقد خطب السادات ود الإسلاميين والجماعات الإسلامية فى مصر كى يضفى الشرعية على نظامه ويقيم أسس سلطته الخاصة.

كما دعمت إسرائيل حماس في البداية عملاً منها على تقويض منظمة التحرير. وفي كلتا الحالتين، ارتدت محاولة الاستغلال والتحكم إلى الدولة العلمانية بأسلوب قاتل مأساوى. ومن ثم، لابد من السعي إلى تقييم أكثر موضوعية وعدلاً لفهم معنى هذه الحركات الدينية.

أولاً: لابد أن نعرف أن تلك الشرائع والأيديولوجيات متجذرة في الخوف. فإن الرغبة في وضع تعريفات محددة للتعاليم، وإقامة الحواجز، وعزل المؤمنين في محميات مقدسة يراعى فيها الناموس بصرامة، مصدره الرعب من الفناء الذى حدا بجميع الأصوليين إلى أن يعتقدوا من حين إلى آخر، أن العلمانيين يريدون إبادتهم. فإن أتى أى شخص بمثل هذه الفنتازيا المحملة بالخوف المرضي والمؤامرات إلى طبيب نفسي سيشخص الطبيب الحالة على أنها حالة اختلال. فالرؤية قبل الألفية التي ترى بعض أكثر مؤسسات الحداثة إيجابية على أنها شيطانية، وتُضمر أحلاماً إبادية، وترى البشرية تندفع إلى حافة الهاوية، هى إشارة واضحة على الرعب والإحباط اللذين أوحت بهما الحداثة لكثير من الأصوليين البروتستانت. فلقد رأينا أن العدمية تكوّن جوهر البرنامج الأصولي وأنه من المحال طرد هذه المخاوف بأسلوب منطقي أو محاولة القضاء عليها بأساليب قمعية. فالاستجابة الأكثر إبداعاً هي محاولة تقدير عمق هذا الخطاب، حتى لو لم يكن باستطاعة الليبرالى أو العلماني مشاركتهم نفس المنظور الذى يسيطر عليه الرعب.

ثانياً، من المهم أن نفهم أن تلك الحركات ليست عودة بالية إلى الماضى إذ إنها حديثة ومحددة ومحدّثة. فيفسر الأصوليون البروتستانت الإنجيل بأسلوب حرفى عقلاني مختلف تماماً عن المقاربات الأكثر تصوفاً ورمزية للروحانية ما قبل الحداثية. وكانت نظرية ولاية الفقيه للخميني قلباً صادماً ثورياً لقرون من الموروث الشيعي. كما دعا المفكرون الإصلاحيون المسلمون إلى شريعة أكثر تحرراً وأنتجوا أيديولوجية مضادة للإمبريالية تتوافق مع الحركات الأخرى للعالم الثالث المعاصرة في زمانهم. وحتى اليهود الأرثوذكس الأشد تطرفاً الذين يديرون ظهورهم تماماً للعالم الحديث وجدوا أن يشيفاتهم كانت حديثة في جوهرها، أى مؤسسات تطوعية. وتبنوا صرامة حديثة في اتباع التوراة وتعلموا استغلال النظام السياسى

بأسلوب أتى بهم إلى السلطة بشكل يفوق ما تمتع به أى يهودى من مدة تناهز الألفى عام.

ولقد رأينا أن الدين فى جميع العصور قد ساعد الناس دوماً على أن يتوافقوا مع الحداثة. فقد ساعدت الشابانية اليهودية والكويكرية (مذهب الأصدقاء المهتزين المسيحى) والميثودية، والتصوف الإسلامى، اليهود والمسيحيين والمسلمين ليعدوا أنفسهم لتغيير أعظم وأمدتهم بالسياق الذى يقاربون من خلاله الأفكار الجديدة. فقد استعد الأمريكيون، الذين لم يكن لهم صبر على مذهب الربوبية (الإيمان بالله بغير اعتقاد فى أديان منزلة Deism) الذى اعتنقه الآباء المؤسسون للجمهورية، للمعركة الثورية بواسطة اليقظة الكبرى The Great Awakening. كذلك طور المسلمون تقديراً للمُثل الحديثة كفصل الدين عن السياسة عن طريق دينامية روحانيتهم الخاصة. وحقاً، فقد نظر إلى العلمانية والعقلانية العلمية فى بدايتهما فى أوربا كأساليب مستحدثة للتدين. وقد كانت بعض الحركات الأصولية القريبة التى درسناها حركات تحديثية. فقد سعى حسن البنا وشريعتى وحتى الخمينى إلى أن يأتوا بالمسلمين إلى عالم الحداثة من خلال سياق هم أكثر اعتياداً عليه من أيديولوجيات الغرب المستوردة، حيث يستطيعون، بهذا الأسلوب، «العودة إلى أنفسهم»، ومساعدة الذين أجبروا على التخلف عن سيرورة التحديث على فهم معنى مؤسسات معينة مثل الحكومة النيابية والحكم الديموقراطى. وكانت هذه أيضاً محاولة لإعادة توطين الحداثة فى حيز المُقدّس. فقد كان الدين قبل الحداثى يرى منطق الروح ومنطق العقل، دائماً، مكملين لأحدهما الآخر. ولجأ الإصلاحيون الإسلاميون إلى موضعة المهمات البراجماتية للحكومة فى إطار دينى وتصوفى.

وكان هذا أيضاً جزءاً من ثورة الأصولية على هيمنة العلمانية. فقد كانت وسيلة لاستحضار الإله مرة أخرى إلى المجال السياسى الذى أقصى عنه. وبأساليب متنوعة، فقد رفض الأصوليون التقسيمات الحداثية (فصل الكنيسة عن الدولة، والمقدس عن الدنيوى) وحاولوا إعادة خلق «الكلية» المفقودة. فقام المتدينون الصهاينة «بثورة على ثورة» الصهاينة العلمانيين الذين أعلنوا استقلالهم عن

الدين. فقد أرادوا حضوراً أكثر للإله وللتوراه في الأرض المقدسة عما كان متاحاً في الشتات. وأصر كل من الخميني وشريعتي على أنه من المحال إقصاء المقدس عن السياسة. وأدان سيد قطب النظام الكافر العلماني في مصر ووصفه بأنه جاهلي. فمازال الذين لم يتشربوا بعد بالعلمانية يعون البعد اللامرئي للوجود ويريدون أن يروه منعكساً في نظام الحكم ولا يرون أى سبب في أن يجعلهم هذا أقل حداثة، رغم أنهم يعلمون ضمنياً أن هذا يقتضي انفصالهم عن بعض الأوجه المحافظة القديمة للدين قبل الحديث. ويعني الإصلاح الديني الأصولي أن نوعاً من النشاط الفاعل الذى كان يُنظر إليه على أنه غير ديني، يتم تقديمه على أنه ضروري. فقد أصر الصهاينة المتدينون والأصوليون المسيحيون والمسلمون على الحاجة للديناميةوالتغير الثورى الذى يتوافق مع حافز الدفعة التقدمية للمجتمع الحديث البراجماتي.

إن المعركة في سبيل الإله هي محاولة لملء خواء قلب المجتمع المؤسس على العقلانية العلمية. وكان باستطاعة المؤسسة العلمانية، بدلاً من توجيه السباب إلى الأصوليين، توجيه النظرة الطويلة الثاقبة الصلبة نحو ثقافاتهم المضادة لفهمها. فقد كانت مجتمعات شكرى مصطفى الصورة المعكوسة لسياسة الباب المفتوح للسادات، كما أن الإمبراطوريات الخيرية التى أنشأها الإخوان المسلمون والخطوات العملية التى اتخذتها الجماعة الإسلامية أبرزت بجلاء قاس تجاهل الحكومة آنذاك للفقراء، على حين أن الاهتمام بهم قيمة حاسمة في الإسلام. وأوضحت شعبية وقوة تلك الحركات أن الناس في مصر مازالوا يريدون أن يكونوا متدينين رغم التوجهات العلمانية.

وكذلك كان الحال بالنسبة لحركة الخميني الدينية في إيران. فكان كلما تصاعدت المواجهة مع النظام، اكتسب الخميني أكثر وأكثر صفات الأئمة وأوجد في شخصه بديلاً شيعياً لشخص الشاه الطاغية الذى لم يكن كثير من الإيرانيين يكنون له الود. كما كانت طبيعة التعليم في اليشيڤات اليهودية تتباين مع الطبيعة البرجماتية للتعليم العلماني. فقد كان طلبة اليشيڤات يدرسون من أجل السعي إلى لقاء مع المقدس، لا لمجرد تحصيل معلومات مفيدة. وجعلوا دراسة التوراة

مركزية في حياتهم بشكل أكبر من أى وقت مضى. وبرهن الأصوليون بإنشائهم المجتمعات البديلة على خيبة أملهم في ثقافة لا تستطيع استيعاب الجانب الروحاني بسهولة.

ولأن هذه الحملة لإعادة القدسية إلى المجتمع كانت قتالية، فقد أصبحت عدوانية ومشوهة وافتقدت التراحم الذى أصرت كل العقائد على أنه جوهر ا لحياة الدينية وأيضاً جوهر أى خبرة بما هو مقدس. ودعت، بدلاً من ذلك، إلى أيديولوجيا قصر وعزلة وكراهية وحتى عنف. لكن الغضب لم يكن حكراً على الأصولية. فكثيراً ما طورت حركاتهم علاقات جدلية مع العلمانية العدوانية التي لم تبد أى احترام للدين ولمن يتمسكون به. وكثيراً ما وقع العلمانيون والأصوليون في شرك عداءات وتجريمات لولبية دائمة التصاعد. فإن كان على الأصوليين أن يطوروا تقييماً أكثر تعاطفاً لأعدائهم طبقاً لما تنص عليه تعاليم موروثاتهم، فعلى العلمانيين أيضاً أن يكونوا أكثر إيماناً بالنزوع إلى الخير والتسامح واحترام الإنسانية، تلك الأمور التى تميز الثقافة الحديثة فى أفضل أحوالها؛ وأن يوجهوا عنايتهم بشكل أكثر تأكيداً إلى المخاوف والقلق والاحتياجات التي تسيطر على جيرانهم الأصوليين، والتى لا يملك أى مجتمع تجاهلها.

هـ(٥٧٣١

المحتويات

الصفحة

المقدمة	٢
القسم الأول: العالم القديم والحديث	١٥
الفصل الأول: اليهود. البوادر (١٤٩٢، ١٧٠٠)	١٦
الفصل الثاني: المسلمون: الروح المحافظة (١٤٩٢، ١٧٩٩)	٦٤
الفصل الثالث: المسيحيون: عالم جديد جميل (١٤٩٢، ١٧٩٩)	١٠٨
الفصل الرابع: اليهود والمسلمون والحداثة (١٧٠٠، ١٨٧٠)	١٦٤
القسم الثاني: الأصـوليـة	٢١٩
الفصل الخامس: خطوط المعركة (١٨٠٧، ١٩٠٠)	٢٢٠
الفصل السادس: الأصول (١٩٠٠، ١٩٢٥)	٢٧٠
الفصل السابع: الثقافة المضادة (١٩٢٥، ١٩٦٠)	٣١٤
الفصل الثامن: التعبئة (١٩٦٠، ١٩٧٤)	٣٦٠
الفصل التاسع: الهجوم (١٩٧٤، ١٩٧٩)	٤١٨
الفصل العاشر: الهزيمة (١٩٧٩، ١٩٩٩)	٤٧٠